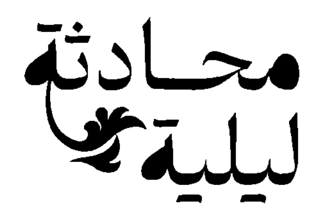
ساشا ناسبيني

مكتبة

رواية

محادثة ليلية

ترجمة: أماني فوزي حبشي



محادثة
ليلية

ساشا ناسيبيني



رواية

ترجمتها عن الإيطالية

أماني فوزي حبشي





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

العنوان الأصلي: Nives
المؤلف: Sacha Naspini



تُرجم هذا الكتاب بدعم للترجمة من وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية

Questo libro è stato tradotto grazie a un contributo per la traduzione assegnato del Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano.

محادثة ليلية: رواية / ساشا ناسبيني

ترجمتها عن الإيطالية أماني فوزي حبشي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.

تدمك: 9789778678352

١- القصص الإيطالية.

أ- حبشي، أماني فوزي (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٢٤٠ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

خرج أنتيو راوُلّي ليقلب القمامة في معلف الخنازير. وبدلًا من أن تنقلب الفضلات، انقلب هو فيها على وجهه بسبب جلطة أصابته. عندما لم ترَه نيفيس يعود إلى المنزل بعد عشر دقائق، أطلت من نافذة المطبخ ورأته ملقًى هناك، والدلو بجواره، وشيكلامينو الذي لم يُدرك ما حدث شرع يلتهم أذن صاحبه.

صاحت هي:

ـ أيها المخبول!

وخرجت مسرعة لتقبض على قدمَي زوجها وتسحبه؛ ليكون في مأمن على العشب. عندما قلبته، فُوجئت به وقد التُهمت وجنته، فصار فكه مكشوفًا كأنه يبتسم ابتسامة مضيئة لا أثر فيها للدماء، حيث لعقه الخنزير جيدًا بضربات من لسانه. انفتحت عينا أنتيو راوُلّي على اتساعيهما. بدا كأنه يُحدق إلى طرف أنفه. هنا نظرت نيفيس إليه، والرياح

تحركُ شعرها على وجهها في موجات بعد أن بعثرت لفتَه. في النهاية قالت صارخة:

ـ سبق وقلت لك ألا تخرج في هذه الرياح الشمالية.

ثم حدقت إلى الحيوان الذي راح يهز ذيله استجابةً لنظرتها، وكأنه يقول: «هلَّا ألقيتِ إليَّ بعضًا آخر منه؟».

استدارت المرأة، ومشت بخطوات ثقيلة حتى المنزل. دخلت مرة أخرى، لكن من دون أن تغلق الباب خلفها، خرجت بعدها بلحظة، وبيديها القديس أنطونيو؛ هكذا يسمي راوُلِّي بندقية الصيد. وهمست بينها وبين نفسها:

ـ تعالَ يا جميل.

وأفلتت زر الأمان بالسبابة. لا بد أن الخنزير شعر بهبوب الرياح، في الواقع أخذ يضرب بقدميه في الوحل، ويهز ظهره. عندما وصلت نيفيس إلى السور، كان شيكلامينو ينخر بكل قوته، وتخرج منه أيضًا تشنجات كأنها الصفير. وكان على وشك أن يهرب إلى الكوخ، لكن جمدته ضربة بدت وقد خرجت من الماسورة التي سددتها المرأة نحوه، فقد أصابته الطلقة في جبهته. سقط شيكلامينو على أحد جانبيه، وأقدامه المجمدة استمرت في التشنُّج. ولا يتطلب الأمر أن

تكون متخصصًا لتُدرك أن الخنزير يجب أن يُقتل على حين غِرة، وإلا أتلف الخوف عضلاته واللحم أيضًا، بما في ذلك اللحم المُقدد.

لم تبكِ نيفيس قَطُّ، ولا حتى في الجنازة. على النقيض من ابنتها التي جاءت من فرنسا وقد تحولت إلى سرينة طوال الوقت، من المشرحة إلى القداس وصولًا إلى المحرقة. ولم تبكِ نيفيس حتى بعد ذلك في المنزل، بل اعتنت بشهية زوج ابنتها وحفيديها، ووصل الأمر إلى أنها أعدت لهم المعكرونة المحشوة بنفسها، إذ خلعت ثوبها الأنيق، وذهبت إلى المطبخ، وأخذت تفتح خزائنه وأدراجه لتُخرج عبوة الدقيق.

هاجمتها ابنتها، التي تحمل معها دائمًا منديلًا:

ـ ماما، يجب أن نفكر ماذا سنفعل معكِ.

رفعت نيفيس عينيها نحو السماء:

ـ لاورا، إذا قلتِ لي هذا مرة أخرى، سألقي بنفسي في نار المدفأة. أنا هنا لا ينقصني شيء. برأيكِ ماذا يجب عليَّ أن أفعل، أن أذهب إلى ولاية لينجوادوكا؟ هل يبدو أنني يمكنني العيش وسط أهل المريخ؟ لديَّ صهر وحفيدان لا أستطيع حتى أن أنطق اسميهما. تُخلع المرأة

من جذورها بصعوبة في سن السابعة والسبعين. ثم مَن سيعتني بالحيوانات؟

ثم رأت أنه لا بد أن تتوقف عند هذا الحد، لأنه باستئناف هذا الحديث ستتطرقان إلى أشياء أخرى، ثم أخذت تفكر: «أنتما تتمنيان بالتأكيد بيع المزرعة. ألا تكفيكما الحقول المؤجَّرة التي تمتصان ريعها كله أول كل شهر؟! بمجرد أن تقوم عائلة بانديني بالحوالة، بوف، يختفي كل شيء نحو جبال البرانس. كل هذا العرض بمجرد رؤية أبيكِ في الصندوق بوجه مُضمد، إلا أنك، في الوقت نفسه، تبدئين بالتخطيط للذهاب في إجازات عيد الميلاد، وذلك الذي يليه. أستطيع أن أتخيل ذلك الرجل الفرنسي الضئيل، كيف يثغو من المتعة».

مكثوا أسبوعًا. في لحظة الوداع ذرفت الابنة مجددًا الدموع الغزيرة، لأنها تتألم لتركها أمها في تلك الغرف المعزولة عن العالم. وقالت لها:

ـ لدينا غرفة جميلة تنتظركِ.

ثم ألقت بنفسها عليها في عناق، قابلته نيفيس بلامبالاة، وذراعاها متدليتان على جانبيها، وأفكارها تؤكد لها: «انتظري وعيشي بالأمل». ثم انحنت على الطفلين اللذين كانا ملتصقين بأبيهما، شقراوين وهادئين. منذ الأزل

لم يتمكنا من النظر إلى جدتهما مباشرةً في عينيها. لكنهما بعد أيام عدة، بدآ يشعران نحوها ببعض الألفة، وها هما سيرحلان كالعادة. قالت نيفيس لنفسها: «وهكذا نصل إلى النقطة نفسها مرة أخرى»، وطبعت قبلتين على رأسَي الطفلين، اللذين كانا يلمعان في ضوء شمس الربيع، واكتفت بمد يدها لتصافح زوج ابنتها. كان نموذجًا للأدب، لا غبار عليه، لكنه مصنوع من الملح. أحد أولئك الأشخاص الذين عليك طعنهم بالسكين لاستخراج رد فعل ما منه. على العكس تمامًا من ابنتها، التي واصلت النحيب، حتى إن نيفيس قالت لها في النهاية بوضوح:

ـ لم أَمُت أنا أيضًا.

ألقت العبارة هكذا، أرادت أن تخفف وطأة الموقف بعض الشيء، والتعبير عما تشعر به أيضًا. لكن لاورا لم تستقبل تلك المزحة جيدًا، لا بد أنها رأت أنها مزحة مريضة، نظرًا إلى أنها لا تزال في حداد. في الواقع اسودَّ وجهها كأن أحدهم لمس مكانًا حساسًا في جسدها بطريقة مشينة. تنهدت:

ـ سلام يا ماما.

منحتها قبلة أخيرة سريعة على وجنتها، ثم ركبوا جميعًا السيارة المستأجرة. رأتهم نيفيس يبتعدون على الطريق

الترابي حتى اختفوا بين شوارع الضاحية. لم يلتفت الصبيَّان لتحيتها بأيديهما من النافذة الخلفية. تركوا خلفهم سحابة من التراب استمرت بضع لحظات. عندئذٍ عادت ربوة كوربِلُّو كسابق عهدها، مكانًا بلا دخلاء. نقلت نيفيس نظرتها نحو المعلف، حيث انتهت حياة زوجها. وتساءلت أين اختفت عائلة الكاتاني التي اغتنت جدًّا من الجزارة في العشرين عامًا الأخيرة. في يوم الحادث وصلوا بسرعة الصاروخ ليخفوا شيكلامينو الذي بلغ وزنه واحدًا وثلاثين رطلًا، لكنهم حتى الآن لم يسددوا ثمنه. تمتمت:

ـ كل عملية بيع هي معاناة في حد ذاتها.

ثم دخلت إلى المنزل.

لم تستطِع النوم في الليلة الأولى. لم يحدث هذا بينما عائلتها معها، على الرغم من التأثير الشديد للمأساة في كل ما يحيط بها. جلست هناك، في الجزء الخاص بها من الفراش، وأدركت حقيقة ما حدث على الفور. وعندما أغمضت عينيها شعرت بأن شيئًا ما سيحدث لها، كأن الحجرة نفسها يمكنها أن تتحول إلى شيء آخر في أثناء نومها. فجأةً لم يعد مقبولًا بالنسبة إليها أن تستمر حياتها كما كانت. ثم بدا لها أن أنتيو نفسه يراقبها. كانت مُتعبة للغاية، وفي مرتين كاد التعب يتغلب عليها. وكلما جرؤت

واستسلمت، تعود لتفتح جفنيها فورًا ويثقُل قلبها. والأدهى من هذا: يختلط كل شيء بشعور من الغثيان، لحسن الحظ لا يستمر سوى بضع لحظات، كأنها لم تعُد تعرف أين هي. شيء غريب، لأنه لم يكن هناك سبب لهذا التخبط. فهي تسكن هذه الربوة منذ نصف قرن تقريبًا، وبالفعل لا يوجد مكان مشؤوم يمكن أن تنقلب فيه الأحوال بتلك الطريقة. ثم خطر لها أنه في حال رغبتها في الذهاب لتضع يدها على المنزل القديم، حيث وُلدت، الذي لا تزال تحتفظ عنه بذكريات حية، فإن ذلك يعني الذهاب إلى حياة أخرى مختلفة.

وفي الهذيان الثاني لذلك النوم المتقطع كادت تتبرز على نفسها. فجأةً سمعت صوت زوجها واضحًا يناديها «نيفيس!» كأنه جاء من الحجرة المجاورة. كان زوجها بصمة تركت علامتها على أيام لا تنتهي، من شبابها حتى اليوم. هكذا فكرت فيه طوال الوقت، وهي تشجع نفسها حتى وصلت إليها زقزقة العصافير الأولى: «لقد رآني أنتيو وأنا أكبر، من عشرينياتي وإلى ما بعد السبعين. إن شبه الحلم الذي تراءى لي الآن الذي يحمل بعضًا من الهذيان هو الشيء الطبيعي، فأنا لست وحشًا».

عندما ذهبت لتنظر إلى نفسها في مرآة الحمام، كادت

تقول: «ومَن تكون هذه؟»، حيث ظلت آثار الليلة الصعبة عليها حتى وهي تقوم بجولتها للاطمئنان على الحيوانات. أخذت تصارع شيئًا كالرعشة داخلها، وتغطي الدموع جانبَي عينيها.

بدأت الأقفاص تهتز عند وصولها، جُنت الأرانب لتحصل على الأماكن الأولى لأفواهها، بمجرد أن ظهرت على جانب المنزل بالدلو وفيه حبوب الطيور، وما إن رفعت الغطاء عن قفص الدجاج، حتى وصل الدجاج في عاصفة ضخمة. ذهبت نيفيس للبحث عن جاكومينا التي تظل دائمًا في المؤخرة، بسبب قدمها اليمنى التي لم يبقَ فيها سوى مخلب كبير وحيد متورم. ردد أنتيو كثيرًا، لمدة طويلة أن عليها طهو الدجاجة، نظرًا إلى ما حدث لها من إصابة في ظهيرة أحد الأيام عندما عقرها الكلب الذي هرب من عائلة بوتينتي. «بمخلب معقور ستهلك بين اليوم والغد. من الأفضل أن نجدها في صحنينا، بدلًا من إلقائها في القمامة». تحوم حولها كلمات زوجها في تلك اللحظة، وتهز نيفيس رأسها. في تلك اللحظة توقفت جاكومينا أمام صاحبتها. الآن اعتادت هذا، تحدق إليها من أسفل ورأسها مُنحنٍ بعض الشيء، وعينها بلهاء فارغة. كانت المرأة تستلطف تلك النظرة الشاردة للغاية

التي تشبه نظرة استفهامية تسأل بها العالم: «وأنا ماذا أفعل ههنا؟ هل تعلمين شيئًا عن هذا؟». ذلك الحد الأدنى من التعبير اختفى في لحظة، كالعادة، عندما سقطت عاصفة من الحبوب من كفها نحو المنقار، فهجمت الدجاجة على الفور. ولكي تتمكن من الأكل والوقوف في الوقت نفسه، كان لا بد أن تفتح جناحها الأيسر بعض الشيء، وتتوازن على المخلب المُشوه. قالت نيفيس بصوت خفيض:

ـ صديقتي العزيزة، أنا أعيش هكذا منذ الأزل.

ومكثت هناك، لتطعم ذلك المخلوق البائس، وهي حريصة ألا تهجم رفيقاتها على طعامها. بعدها ذهبت لتعتني بالبستان.

سرعان ما أدركت أن حياة الريف تتغير كثيرًا في ظل الوحدة. تصبح الساعات التي تمر بطيئًا جدًّا كأنها خبطات بالجاروف على الأسنان، والأشياء المعتادة تتخذ منحى آخر. يحوِّل الصمت كل شيء إلى منحدر لا بد من تجاوزه باختناق، بين كل نصف ساعة. ففكرة وجود شخص على بُعد متر أو حتى على بُعد ستة كيلومترات تغير كل شيء، فهناك شخص ما تتشارك معه في كل شيء. قبلت نيفيس منذ البداية ذلك الواقع بمرارة، وتساءلت:

ـ ما هذا؟! ألا يمكنني أن أكتفي بنفسي؟

اكتشاف ذلك في سن متقدمة كان بمنزلة صدمة لم تتلقَّها عن طيب خاطر. ومع كل عمل تقوم به تثقل عليها هذه الفكرة: إن أي شيء لا نتقاسمه يفقد قيمته. وبخاصة الأشياء الصغيرة، تلك الأشياء التي لا معنى لها، مثل شرب كوب من الماء. «لا يوجد كلب معي يقول لي: لماذا أنتِ عطشى هكذا؟»، فقط لمجرد تبادل بعض الكلمات. التي تعني في طياتها: «أنا أراكِ، أنتِ موجودة». شعورها بأنه لا توجد نفس حية تنظر إليها أشعَرها بأنها شبح. لا فارق بين وجودها على تلك الأرض من عدمه.

بدأت نيفيس تتناول العشاء على الأريكة أمام التلفزيون الكبير. في النهاية أخذت تشرب الكحول أكثر من ذي قبل؛ لتهدأ. لكنها من حين إلى آخر تلقي نظرة عابرة تجاه الممر، ومن ثَمَّ تجاه غرفة النوم. فكرة أن تذهب لتضع قميص النوم تشعرها بأن معدتها تنكمش في حجم رأس الدبوس.

بعدها بثلاثة أيام، فتحت باب المنزل ووجهها جاف وكعكة شَعرها مفكوكة. تبدو كنزة الشغل ضخمة جدًّا عليها، شبيهة بقميص أحد النازحين. الجزمة المطاطية تطحن الحصى، لكنها تشعر وكأنها تسير في الهواء. بمجرد أن أدارت رأسها فجأةً شعرت بالدوار الشديد، عندئذٍ قالت في نفسها: «إذا استطعت يمكنني أن أنام ربع ساعة فقط».

ثم تذكرت الطريقة التي عثرت بها على أنتيو. ولم تحب قَطُّ فكرة أن تمتص الدجاجات الجائعات مُقلتيها.

في النهاية كان لا بد أن تواجه الأمر وأن تفعل شيئًا بهذا الصدد؛ لقد حدث هذا بسبب الهجران. في أثناء النهار تستطيع أن تتحمل العزلة بأفضل الطرق، مشغولة بأمور الحيوانات وما يتبع ذلك. مع هبوط الليل تُفتح داخلها فجوة عميقة. وهي تفهم جيدًا أن هذا ليس الخوف العادي، بل الحزن يتحول إلى شيء آخر. إذا شعرت برغبة في النوم، تجد نفسها متشبثة بالأغطية وهي تتنفس مثل الثور. ثم اضطراب عدم النوم بعد ذلك يؤدي إلى الانحدار في أشياء تكاد تلتهم قلبها. على سبيل المثال، يبدو لها أن أنتيو يتقلب في منامه، أو أن الحجرة يرن في أرجائها صوت انفجار حاد قوي لضرطة. كانت نيفيس تقول لنفسها: أنا مَن فعل ذلك، فأعصابي الضعيفة سببت سيبان مؤخرتي، وسببت الخوف لنفسي. عندئذٍ تجحظ عيناها إذا لمست الملاءة يدها، لأنه يبدو لها أنها تلقت تربيتة في عز الليل. وتشعر بالتنميل في جسدها كله. يتسبب لها عدم القدرة على النوم في هذا التأثير الغريب، فقد أصبح جسدها رقيقًا مثل الورق الشفاف، أو الأسوأ من هذا، فهي تشعر بأنها تذوب في الهواء. يفصح الوجه الشبيه بالأموات

الذي تعثر عليه صباحًا في المرآة عن كل شيء: شبح بلا بكرات شَعر، جلد مثل الورق المجعد، وجنتان غائرتان. ولا تستعيد شكلها حتى بعد أن تضع طاقم أسنانها.

بدأت تنظر إلى الهاتف. وبدأت تثرثر معه بصوت مرتفع وتتعامل معه على أنه شخص:

ـ هل تعتقد أنك يمكنك تسليتي؟ بالنسبة إليَّ ستموت على قطعة الأثاث تلك.

أو:

ـ لم يرَ أحد ـ من قبل ـ نيفيس شيليراي تثرثر في سماعة الهاتف. لا فائدة من تحديقك إليَّ بهذه الطريقة.

دخلت مع الهاتف معارك من هذا النوع، وفازت بها بمجرد التفكير في تكاليف فاتورة الهاتف في حالة الاتصالات الهاتفية برقم فيما وراء جبال الألب. ثم تشعر بالغضب عندما تصل إليها مكالمة في المساء وتجد نفسها تطير عبر الردهة. تقول وأنفاسها معلقة في حلقها:

ـ آلو.

ومن الجانب الآخر تظل لاورا تستمع لوهلة، ثم تسأل أحيانًا، بلا كثير من المقدمات:

ـ ماما، هل أنتِ بخير؟

فتجيبها نيفيس:

ـ في أحسن الأحوال!

وكان يحدث لها أحيانًا أن تنعكس صورتها على اللوحة التي تقاوم في مكانها منذ قرن، التي ابتاعوها من فينيسيا عام ١٩٨٤. ترى عينَي بقرة بارزتين للخارج كأنهما صاروخان. «كم الساعة الآن في بلد آكلي الجبن؟».

تعد الابنة الأنفاس، ثم تقول:

ـ الحجرة لا تزال هنا... في انتظاركِ.

تضحك نيفيس وتقول لها:

ـ قولي لها أن ترقد في سلام.

ويحدث أنها لا تتذكر أنها طلبت رقم بانديني، الذي بجانب أنه رب العائلة التي تستأجر الأراضي، فهو صديق عزيز للعائلة منذ الأزل، ثم تراه يصل بشاحنته الصغيرة، ومعه المشتريات الأسبوعية. تقول له وهي تذهب للقائه في الساحة:

ـ جراتسيانو، مَن أرسلك؟

يتوقف هو لينظر إليها، ويجدها في حالة سيئة سواء وجهها

أم ملابسها. يفتح الحقيبة الخلفية ويُخرج الأكياس. وبعد أن يأخذ كل شيء إلى المنزل وإلى الخزانات، يتناول ـ كمكافأة ـ كأس «الفيرموت» المعتادة في العاشرة صباحًا. بالتأكيد لم يستطِع أن يقول إن زيارته لنيفيس تشبه زيارته لجدته. عندئذٍ يلقي هناك ببعض الكلمات من نوع:

ـ وكيف هي الحياة في التلة من دون سُباب أنتيو المسكين؟

تهز كتفيها:

ـ يبدو لي أنني أميرة.

ـ أميرة الفئران.

يقول الآخر بينه وبين نفسه وهو ينظر إلى المطبخ الفوضوي، وعلى أسطحه يتجمع الفتات والأوراق وبقاع الزيت:

ـ يا له من هدوء! في مكانك يمكنني أن أتخلى عن أذنَي.

تضحك نيفيس:

ـ الصمت مثل لوحة لتكبير الأفكار.

ـ وهل هذا جيد؟!

ـ هل هذا سيئ؟!

ـ يمكن أن يسقط المرء في بعض الفخاخ. كما يقول المثل: إذا حدقت إلى الظلام يحدق إليك الظلام أيضًا.

ـ فلنرَ مَن سيضحك أخيرًا.

يأكلها المزاح مع صديقها حية. عندما تغلق الباب، تشعر كأن جبلًا يلطمها على رأسها. في بعض الحالات تحتاج إلى أن تجلس لحظة على الأريكة لتعبر عنها رعشة ركبتيها. حتى في تلك اللحظات تنتابها لحظات نعاس عابرة، تشبه حالات إغماء، تستيقظ منها بصيحة: «أيتها العاهرة!». عندئذٍ تسرع لتقف أمام صورة الزفاف، التي منذ الأزل تشغل رفًّا وسط اللوحة الزجاجية، بين أطباق التقديم الجيدة التي لم تستخدمها ـ ربما ـ سوى ثلاث مرات طوال تلك الأعوام. ثم تنفجر وهي تنظر إلى ذلك الزوج الوسيم الشاب ذي الشارب الرفيع وضحكة تشبه ضحكة ممثل وتقول:

ـ انظر ما فعلته بي!

تقاوم نيفيس بضع دقائق قبل أن تذوب في بحر من الحنين. لكنها لا تبكي أبدًا.

وفي إحدى لحظات التنفيس تلك، وهي تشعر باليأس إلى النخاع، حركت عينيها نحو اليمين، ناحية ما كانت عليه

هي، وشَعرها الأشقر المصفف جيدًا. توقفت أمام برواز داخله صورة أبويها اللذين طالما فكرت فيهما كملاكيها الحارسين. توجهت بالكلام إلى أمها، التي كانت في تلك الصورة تبلغ بالكاد عشرين عامًا:

ـ فياميتَّا، انظري كم أنتِ جميلة.

ثم تمتمت:

ـ وانظري إليَّ.

في تلك اللحظة تذكرت قصة أضحكتها دائمًا منذ طفولتها.

كانت أعوام الحرب، وأرسلوا روبرتو إلى الجبهة، الأمر الذي كاد يقتل زوجته وأمه وأخواته من الحسرة. ترى نيفيس من جديد الوجه العابس الذي تذكرت به أمها ذلك الشتاء:

ـ شتاء وحيد، في منزل فارغ، لا تزال رائحته مثل ثمار البرتقال.

لم تكن سوى شابة صغيرة، لكنها قررت أن تصمد في انتظار زوجها في تلك الحجرات. تنام في البرد، في ضوء شمعة لا تستمر طويلًا. كانت مثل «جنية الحب»، كما تقول الجدة لاندا. تصل إليها الخطابات بوتيرة بطيئة لا تُحتمل. وفي ليالٍ مظلمة تقطعها فرقعات

القنابل في المدينة التي تُسمع حتى في البلدة الصغيرة، تشعر فياميتًّا بالخوف. تضع الغطاء فوق رأسها وتمكث هكذا، تحصي الدقائق. في يوم اكتشفت اكتشافًا مهمًّا: أخذت صرصارًا ووضعته فوق الكومودينو، وأغلقت عليه في صندوق، وهكذا شعرت بالصحبة. أخذت تتحدث إليه، وكلما طمأنته، اطمأنت. ظلت نصف قرن تحكي كيف أنقذت تلك الحشرة حياة شابة مُعذبة في انتظار كاد يفتك بها، إلى حد أن شَعرها ابيضَّ في سن مبكرة.

في البداية دخلت نيفيس إلى كوخ الأرانب. أخذت قفصًا كاد يتآكل هناك، غسلته جيدًا. وبعدها فتحت باب حظيرة الدجاج، رأت كل هذه الدجاجات مصطفةً على القش مثل النساء العامرات. فُزعت الدجاجات في البداية من الضوء الشديد في هذا الوقت المبكر، وبعضها بدت كأنها تبيض كواجبٍ عليها، لكنها أُمسكت بطريقة مخيفة وتيبست، بعد الدخول عليها فجأةً هكذا في الصباح الباكر. أخذ الديك يسير نافشًا صدره ذهابًا وإيابًا، كأن سكان المريخ هاجموا منزله. سارت نيفيس بخطوات واثقة، عبرت الكوخ الصغير محنية رأسها، ووصلت إلى هدف محدد، بين الدجاجات التي استمرت في

نومها على الرغم من الاقتحام، ثم أمسكتها من رقبتها وأخذتها معها.

استيقظت جاكومينا وقد أصبحت فعلًا داخل القفص. رفعت رأسها فزعة وتلقت ضربة من القضبان. قالت نيفيس من أسفل الأغطية:

ـ يا للنشاط!

وضربت مرتين عبوة الحبوب: توك توك. لم تهتم الدجاجة على الفور بأنها لا ترى خلفها أقفاص الحظيرة حيث وُلدت، وغطست على الفور بفكها في الطعام.

أول شيء فكرت فيه نيفيس عندما فتحت عينيها هو الآتي: لقد نمت مثل ملكة. وشعرت برغبة في الضحك. مع وجود جاكومينا بجوارها بدا لها كأنها نامت مثل القديسة.

كانت الدجاجة بجوارها، على أهبة الاستعداد، وقد عكس لها المصباح صورة جانبية. كالعادة تنظر مثل اللاجئة التائهة، لكن في الوقت نفسه تحتفظ بثبات المحارب. من مؤخرتها يبرز رأس بيضة هزيلة بلا شكل محدد، يميل لونها أكثر مما ينبغي نحو الأزرق، كأنها بيضة حمام. قالت صاحبتها:

ـ لا بد أنه التغيير.

ثم أخذت تتمطى في الفراش عشر دقائق أخرى.

من يوم إلى آخر أخذت تسخر من الهاتف بلا هوادة:

ـ انظر إليَّ كما يحلو لك، بالنسبة إليَّ ستظل هناك، تعوي للقمر.

تخرج الكلمات بقوة تُدهش العمالقة. تعتني بأمر البستان والحيوانات بسرعة، والشيء نفسه تفعله بالمكان وتنظف أيضًا الزجاج. عمليات تنظيف من ذلك النوع لم يرَها أحد منذ عام ١٩٧١، عندما أرادت نيفيس في العشرين أن تبدو ماهرة في عينَي زوجها الذي كان يختفي بين الحقول في الفجر.

الخلاصة، وُلدت نيفيس من جديد. وكانت تحمل جاكومينا معها وهي تتحرك هنا وهناك، محفوظة داخل القفص مثل وردة رقيقة موضوعة في آنية زجاجية، محمية من باقي العناصر. ثم تقول وهي تنظر إلى صديقتها، التي مثل العادة تعيش متغربة عن كل شيء:

ـ إذا كنت ألقيت نفسي تحت رحمة طبيب أحمق، لَملأني بالحبوب والنقاط القوية، لكن الآن يكفيني وجودكِ. ربما إذا حكيت هذا لأحد سيعتقد أنني أُصبت بالجنون.

في المساء تجد لاورا أمها كأنها وُلدت من جديد، وروحها

روح صبية شابة. في إحدى المرات سألتها لتنزع الشكوك عن نفسها:

ـ ماما، هل تسكرين؟

انفجرت من نيفيس ضحكة قوية من الأحشاء. نظرت إلى جاكومينا وهي تسرع الخُطى في أنحاء الصالون، حيث تسمح لها بأن تفرد قدميها قليلًا. ثم أجابتها في مزحة:

ـ بل أسوأ.

تتسلى بأن تفزع ابنتها.

تأخذ نيفيس دجاجتها أيضًا إلى الحمَّام. إذا جلست لتشاهد التلفزيون ترقد نيفيس على المقعد حيث لا تزال آثار جلوس أنتيو موجودة. من العجيب رؤيتها في ذلك المكان، بتلك العينين الخاليتين من الروح تشاهد مسابقات التلفزيون، أو ثرثرة السياسيين الذين يمزق أحدهم الآخر على نغمة: «تقول الإحصائيات...». تعلق نيفيس على كلمات أولئك المتحدثين ـ باهظي الأجور ـ بصوت مرتفع:

ـ انظري كيف هو العالم يا صديقتي!

ويحدث أن تصل إليها أحيانًا قوقأة من الطرف الآخر، فتومئ المرأة بالإيجاب:

ـ فعلًا.

غسيل الدجاجة الصغيرة لم يكن مقززًا، مثل الوضع عندما وجب عليها تنظيف أظفار قدمَي زوجها الراحل بالمقص وقصافة الأظفار وبخاصة في أيامه الأخيرة. أحيانًا كان يحضر إليها بأظفاره التي تثقب الحذاء الضخم، والوسخ مُجمَّع في ثنايا أصابعه منذ عيد القيامة. تحب نيفيس تلميع ريش صديقتها الصغيرة، تستخدم في ذلك خرقة مبللة تمررها أيضًا على منقارها. تنظفها من براز الصباح. وسرعان ما اعتادت تلك الرائحة الخاصة، التي بدأت تترك أثرها في المنزل.

تقف في البستان وهي تجمع الديدان من الأرض، وتضعها في آنية جانبية. بعد الانتهاء تشطفها جيدًا في المجلى الخارجي. وأخيرًا تعود إلى المنزل وتضع أمام جاكومينا صحن اسباجيتي طازج. تشكرها هي بأن تبيض لها بيضًا جميلًا، تشربه نيفيس طازجًا، أو تطهوه بالزبد، كما تفضله. عملية أخذ وعطاء جميلة.

كانت اللحظات الحرجة قليلة. أصعبها عندما تفاجئها تلك الفكرة: هل استبدلت بأنتيو دجاجة عرجاء؟! ما يدهشها: وجودها بجوارها لم تعد تفتقد ولا حتى ظُفرًا من أظفار زوجها، خصوصًا تلك التي كانت تزن نصف

كيلو وتثقب الجوارب بالفعل. عندئذٍ تُصاب بنوع الكآبة التي لا تعرف كيف تتعامل معها وتقول لنفسها:

ـ لقد منحتُ حياتي لشخص أمكن لدجاجة أن تحل محله.

وتشعر بالتعرق، لكن أيضًا بالضياع. عندئذٍ تحاول اختبار مشاعرها بالبحث عن المؤثرات التي استخدمتها في وقت ما، لكن لم تعد تمسها كما في السابق: مثل أنتيو وهو يحضر لها باقة زهور الخشخاش الأولى. وأنتيو وهو يحملها على ذراعه في معرض الخريف. وأنتيو وهو ينظر إلى تفتُّح زهور عباد الشمس ويقول لها:

ـ نورها أقل من نوركِ.

ثم لا يحدث لها شيء، مجرد ابتسامة عابرة كالتي يمكن منحها للكلاب التي تشحذ عظامًا من صحنك. لم تستطِع ترك نفسها لأي شيء يؤثر فيها، ولا حتى وهي تتصفح ألبوم العائلة. أخذت تقول بصوت مرتفع:

ـ هنا عندما فزنا بمسابقة الرقص عام ١٩٧٩ ... وهذا عشاء عيد زواجنا الثلاثين.

وجاكومينا تجلس بجوارها، متماسكة على الوسادة المخملية، المحشوة جيدًا، التي كان الزوج حريصًا عليها جدًّا. تنقر الدجاجة صورة محددة.

ـ إنه دومينيكو ابن خالتي، كنا نطلق عليه اسم «وحيد السنام»، وذلك للتعبير عن استعداده للعمل ساعة واحدة فقط لا غير. ثم ذهب ليعمل سائق تاكسي في فنزويلا، ولم أرَه بعدها قَطُّ.

المرة الأولى التي ذهب بانديني إليها بحمولة المشتريات الأسبوعية، عثر بين الأقدام على الدجاجة في أثناء تناول كأس «الفيرموت». قال:

ـ نيفيس، دخلت إحدى الدجاجات إلى المنزل.

وكاد يركلها، فانتفضت نيفيس:

ـ توقَّف حالًا.

أخذت جاكومينا، وضمتها إلى صدرها. نظر جراتسيانو إلى المشهد وقلبه يعتصر ألمًا. لم يكن يعرف ما يقوله، انتهى من مشروبه جرعة واحدة وانصرف.

سرعان ما وصل الخبر إلى فرنسا. في ذلك المساء نفسه، سألتها ابنتها في ضيق:

ـ ماما، هل صحيح أنك تعيشين مع دجاجة في المنزل؟!

أرسلت نيفيس سهمًا مسممًا إلى صديقها الثرثار، لكنها في قرارة نفسها أدركت أنه أخبر ابنتها بهذا الأمر الغريب بدافع التعاطف والقلق المخلصين.

ـ وماذا عنكِ أنتِ، يا مَن تنامين مع رجل ـ يأكل الحلزونات ـ صامت دائمًا؟

لم تستطِع استفزاز الابنة:

ـ لكنه ليس أمرًا طبيعيًّا.

شعرت نيفيس بأنها تُهاجَم بضراوة:

ـ اسمعي جيدًا يا آنسة... أنا أختار صحبة مَن يروق لي. فكرا أنتما فقط في إنفاق ما يصل إليكما من إيجار الأرض، وهو الشيء الذي تفعلانه بجدارة. أما أنا، فإذا أردت فيمكنني أن أضع أيضًا حمارًا في الصالون.

ووضعت السماعة.

كانت جاكومينا جاثمة على الأريكة تشاهد إعلان صابون الغسالة «داش»، وعلى الشاشة نافذة غسالة مستديرة تدور بأقصى سرعة. أخذت تحدق إليها متسمرة. وجدتها نيفيس هكذا بنظرة مشدوهة.

عادةً عندما يحدث شيء من هذا القبيل تترك الأمر ليمر بشكل عادي؛ فهي تخاف من أن تهز الطير المسكين فتحدث له صدمة، مثلما يحدث لمَن يسير في أثناء النوم. بعد خمس دقائق تنحنحت المرأة بصوت مرتفع، لكن بلا فائدة. نهضت نيفيس ولمست جناح جاكومينا بهدوء، وتمتمت:

ـ هل سُحرت؟

لم يصدر عنها أي حركة. في النهاية قررت أن تغلق الموضوع، فأمسكت بجهاز التحكم عن بعد، وأطفأت التلفزيون.

بدت جاكومينا مصنوعة من الخشب. حاولت صاحبتها مرة أخرى، بنبرة أُمٍّ:

ـ هيَّا يا حلوة.

فلو استمر وضعها على هذه الحال ستجف عيناها، فتقريبًا لم يرمش لها جفن منذ المكالمة الهاتفية. تجلس في مكانها بالتعبير الشارد نفسه، ومنقارها نصف مغلق كأنها في حالة تثاؤب لا نهائية. انحنت نيفيس من جديد فوقها، وعادت لتلمسها، لكن بإصرار أكبر. وأدركت أن جسمها قاسٍ.

ـ ماذا حدث لكِ، أميتةٌ أنتِ أم حيةٌ؟

أي شخص كان سينفجر في الضحك عند رؤية طائر يقف كتمثال جميل. لكن قلب نيفيس بدأ يدق بقوة. حملتها بعناية، كأنها تعتني بقطعة كريستال. حاولت أن تهزها، ومن حلق جاكومينا صدر صوت غريب «غا»، كأنها صندوق صوت موسيقي، لكنها ظلت كالتمثال المنحوت.

أخذت نيفيس تهزها مرة أخرى مثل طفل في مهده ثم: «غا، غا، غا». وضعتها مرة أخرى على المقعد. ثم ذهبت إلى المطبخ وأخذت القِدر والمغرفة المعدنية. وتمتمت:

ـ الآن سأوقظكِ أنا.

وضربت على قعر القِدر ضربة بسيطة. لا شيء. تقدمت خطوة إلى الأمام. كررت الضربة بحماس أكبر. إلا أن جاكومينا ظلت ساكنة. خطر ببال صاحبة المنزل أن تذهب لإيقاظ القديس أنطونيو وتضرب طلقة من البندقية على بعد متر منها. لكنها فضلت أن تجرب القِدر مرة أخرى، وهذه المرة ضربت بقوة شديدة فعلًا، رن صداها داخلها حتى النخاع، لكن الدجاجة لم ترمش حتى.

والآن أين تذهب لتحصل على صديقة تبيض مثلها؟ تدرك نيفيس ذلك... كانت لجاكومينا جاذبية خاصة، ساعدتها لتصبح الجسر بين موت أنتيو والمحيط الذي أعادت تصميمه في وحدتها، لكن هذا ليس أمرًا عاديًّا، يمكن للمرء أن ينفذه من يوم إلى آخر. تخاطر الآن بأن تعود إلى حالة الأرق المستمر الذي كاد يقضي عليها. أو الأسوأ من ذلك أن تُهزم وتذهب إلى فرنسا، وهو ما يعني في كلمات قليلة الذهاب لتقضي ما تبقى من أيامها في المريخ، حيث لن تعرف حتى كيف تطلب القهوة.

وصلت إلى المنضدة حيث يوجد الهاتف، وأمسكت الدفتر الذي تستخدمه دليلًا. عثرت عليه أسفل حرف الباء: بوتاي. كان بيطري العائلة، وهو مَن يأتي ليفحص الحيوانات منذ الأزل. نظرت نيفيس إلى الساعة، ووجدتها بعد الثامنة بقليل. لوريانو طبيب ماهر لكن لديه رذيلة السُّكر، والجميع يعرفون هذا. يبدأ الشرب منذ الصباح الباكر مُجهِدًا كبده حتى العشاء، وذلك بعد أن يقضي يومه واضعًا يديه في مؤخرات الماعز والعجول ولِثاها، يمنح نفسه الكأس الأخيرة ويذهب إلى الفراش بعد أن ينتهي من سماع الموسيقى الختامية لنشرة الأخبار. نشرة أخبار القناة الرابعة التي يفضلها كبار السن.

أجابت الزوجة:

ـ آلو.

ـ دوناتيلَّا، معذرة للاتصال الفجائي. أنا نيفيس.

صمتت الأخرى لحظة لتربط الاسم بصاحبته، ثم قالت:

ـ عزيزتي، يا لها من مفاجأة.

وفي لحظة جمَّعت كل الأحداث الأخيرة، موت أنتيو وما إلى ذلك. لا بد أنها شعرت بنداء الواجب، فرحبت بتلك الصديقة أكثر من المعتاد:

ـ اسمعي، كنت أفكر فيكِ اليوم تحديدًا، كنت أقول لنفسي ربما في عصر أحد تلك...

لم تكن لدى نيفيس رغبة في الاستماع إلى هذا الحديث المعسول. شعرت ببعض الأسى لأنها قاطعت تلك السيمفونية قبل أن تبدأ، لكن لديها حالة عاجلة بالفعل:

ـ هل لوريانو في المنزل؟

تنحنحت دوناتيلَّا مرتين، ثم تمتمت مغيرةً نبرتها فعلًا:

ـ أجل في الغرفة الأخرى، لقد دخلت هناك منذ ثلاث دقائق، يبدو كالمومياء.

ـ هل يمكنكِ أن تناديه؟

ثم جاءها صوت تمتمة غير واضحة، سببها بالتأكيد شعورها بالإحراج بأنها لا بد أن تجمل الوضع، فقد كان زوجها ثملًا للغاية. حاولت دوناتيلَّا حتى لا تمنح الكثير من التفسيرات:

ـ ربما يمكنكِ الاتصال غدًا صباحًا. أنتِ تعرفين فهو يذهب مبكرًا للنوم كالدجاجات.

ـ بشأنها بالتحديد اتصلتُ.

ـ هل توجد عدوى ما؟

ـ يوجد أمر عاجل.

رفْض طلب سيدة ترمَّلت لتوها، سيكون أمرًا ربما انتشر من فم إلى آخر في الجوار. قيَّمت دوناتيلَّا الموقف، وكان يمكنها الانتقال بالمحادثة إلى هاتف غرفة النوم، إلا أنها استبعدت هذا الحل على الفور. فمن الأفضل أن ينهض لوريانو على قدميه، حتى يستعيد أدنى حد من الوعي بنفسه. ثم أصبحت النبرة جادة:

ـ لحظة.

من السماعة تصل أصوات متنوعة؛ خبطات خطوات على الأرضية، ثم صرير ولعنات بعيدة. إلى حد إزعاج قديس بعيد. نظرت نيفيس إلى جاكومينا الراقدة هناك على الأريكة، بدت صناعية.

وصل إليها صخب أشياء سقطت، تبعه على الفور صوت دوناتيلَّا، كأنها تتحدث من فوق القمر:

ـ أحمق!

حتى قبضت يد بقوة على السماعة. وصل إليها صوت بوتاي خشنًا من النعاس والمخاط الشديد:

ـ آلو نيفيس... تعزياتي!

سبق وأسرف في تقديم التعزية يوم الجنازة. كانت حالتها النفسية يومها مثل من يرى القطار يفوته.

ـ لوريانو، اسمع.

ـ أخبريني.

ـ لديَّ تلك الدجاجة.

ـ دجاجة!

ـ أصابها الذهول.

ـ مَن؟

ـ قلت لك الدجاجة.

ـ الدجاجة أصابها الذهول؟

ـ أجل. كيف يمكنني إيقاظها؟

ـ كيف يمكنكِ إيقاظها؟

ـ أنا أسألك.

من الجهة الأخرى سادت لحظة صمت. تخيلت نيفيس النظرة الشاردة لهذا البيطري التي لا ترى سوى أواني النبيذ. في النهاية عاد بوتاي إلى الحياة:

ـ هل هذا لغز؟

ـ لوريانو، هل تسمعني؟

ـ أسمعكِ.

ـ لديَّ دجاجة، انحشرت في إعلان «داش».

ـ «داش».

ـ بالضبط.

ـ مسحوق الغسيل؟

ـ هو بالتحديد.

ـ هل تعطيني القليل منه؟

ـ ماذا؟

ـ كنت أتحدث مع دوناتيلَّا.

ـ لقد طرقت أيضًا القِدر، لكن بلا فائدة.

ـ طرقتِ القِدر؟

ـ بلا فائدة.

ـ اسمعي، أنا الآن لا أشعر بأنني بخير، و...

ـ لوريانو، هذا أمر مهم. هل يمكن أن تقول لي ماذا يجب أن أفعل؟ وعندما تمر سأدفع لك أجرة الإزعاج.

عندما سمع عن الأجرة، حاول بوتاي أن يستعيد نبرته، فهل يمكنه أن يُضيع فرصة الحصول على نقود، لكنه كان ضائعًا في عالم آخر.

ـ نيفيس، لم أفهم أي شيء. كنتِ تتحدثين عن «ديكسان».

ـ لا عن «داش».

ـ «داش»؟

ـ ذلك الإعلان الذي يعرضونه هذه الأيام الذي تلف الغسالة فيه بكل سرعتها.

ـ أعتقد أنني رأيته.

ـ رأته أيضًا جاكومينا؟

ـ ثم؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف: مكثتْ كالتمثال هكذا. لا يرمش لها جفن.

تنفَّس بوتاي بقوة شديدة، وحاول أن يبلع المشروب مرة واحدة، ويستجمع أدنى خطوط ذهنه، ثم قال:

ـ نيفيس، هل أعرف أنا جاكومينا هذه؟

ـ أجل الدجاجة التي قلت لك عنها في البداية.

ـ آه... الدجاجة.

ـ شاهدت إعلان «داش» وأصبحت مثل حجر.

ـ اسمعي، أنتِ تعلمين أنني عندما يوقظني أحدهم من نومي العميق أُصاب بضربات قلب سريعة! أحضري لي بعضًا منه حتى أفوق قليلًا.

ـ ماذا؟

ـ أتحدَّث مع دوناتيلَّا.

ـ كنت أقول لك عن طيري.

ـ الدجاجة.

ـ أجل.

ـ التي ذُهلت أمام إعلان «داش».

ـ بالضبط.

ـ وأنا ماذا يجب أن أفعل؟

ـ أنت بيطري أم لا؟ إذا استمر الوضع على هذه الحال ستتعفن في الصالون.

ـ هل تضعين الدجاجة في الصالون؟

ـ أضعها حيث يحلو لي. المشكلة هي أنني أحتاج إلى إيقاظها.

ـ وإذا جلبتْ إليكِ البراغيث في المنزل؟

ـ لا تجلبِ إليَّ في المنزل سوى السعادة الشديدة.

ـ إنها طيور تتجول طوال اليوم في روثها.

ـ أعرف أشخاصًا يفعلون ما هو أسوأ.

ـ بالفعل... اسمعي، أعطيناها كل التطعيمات، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ وبالنسبة إلى النوم... كيف هي؟

ـ إنها دجاجة عادية. في منتصف النهار تتناول الخنافس من البستان. وأنا أعتني بها أفضل مما إذا كانت على كرسي البابوية.

كان بوتاي يشرب من كوب صغير، يُفهم ذلك جيدًا على الجهة الأخرى. أخذ يتخذ هيئة المستنير بقليل من المنحى نحو السكير. كان على حق: شرب كأس من الخمر كان يُعيده إلى الحياة، على الرغم من ثقل مخارج حروفه:

ـ ماذا كنتِ تقولين عن ريشها؟

ـ لا بد أن تراها. تبدو من الخزف.

ـ إذن فهي مُنومة مغناطيسيًّا.

ـ مَن؟

ـ جانكارلينا، أو كيفما تُسمِّينها.

ـ جاكومينا.

ـ أجل... هي.

ـ جاكومينا مُنومة مغناطيسيًّا؟

ـ إنها حيوانات غبية. يحدث هذا أحيانًا.

لم تحتمل نيفيس:

ـ تكلَّم عن نفسك.

تنحنح لوريانو:

ـ لكن لا، كنت أريد أن أقول إن...

ـ هل هذا أمر خطير؟

ـ لم أسمع قَطُّ أن دجاجة ماتت لهذا السبب. إلا إذا اعتقد أحدهم أنها ماتت وطهاها مع البطاطس. لن تدرك أي شيء.

ـ يا للشقاء!

وتخيلت نيفيس جاكومينا مغروسة في السيخ وكادت ركبتاها تخذلانها. إلا أنها في حياتها أكلت عددًا من العظام

من ذلك النوع. ولم ترد أن تفتخر، لكن يخنة الدجاج التي تطهوها لا يُعلى عليها.

ـ أشعر بالغثيان.

ـ سيمر، إنه بالتأكيد التعلق.

ـ وإذا لم تستيقظ قَطُّ؟

تنهد بوتاي تنهيدة عميقة. بدأ يشعر بالتعب من هذا التخريف:

ـ جرِّبي أن تهزيها.

ـ جرَّبتُ هذا، وطرقت القِدر أيضًا.

ـ آه، نعم، القِدر.

ـ ورفعتها من مكانها أيضًا. لا فائدة. إنها مسحورة.

ـ ستستيقظ.

ـ وإذا لم يحدث؟

ـ نيفيس، لا أعرف ماذا أقول لكِ!

ـ وإذا شممتها بعض الملح؟

ـ أحسنتِ... جرِّبي هذا.

ـ على كل حال، ستمر صباح الغد لتراها؟

ـ أجل، الآن سأحضر.

تهللت هي:

ـ الآن؟

ـ أتحدث مع دوناتيلَّا. لقد ذهبت إلى الفراش، وهذا أمر سيئ.

ـ لماذا لا يمكن لدوناتيلَّا أن تذهب إلى الفراش؟

ـ لأن غطيطَها مرتفع جدًّا. الآن وقع الضرر، سأنام فيما بعد. هذا يعني أمرًا واحدًا... أنني لن أنام أبدًا.

ـ بسببي؟

ـ بسبب ألفريدينا، أو كيفما كان اسمها.

ـ جاكومينا.

ـ أجل... هي.

ـ بالنسبة إليَّ هي عطية. هل تتخيل أنه بفضلها لم أُعِدَّ حقائبي لأذهب إلى لينجوادوكا، أو إلى مستشفى الأمراض العقلية، وما هو أسوأ من هذا. وبمناسبة النوم: لم يكن بإمكاني النوم قَطُّ. بعد أسبوع بلا نوم تمامًا، كنتُ كمن يسير وسط الضباب. إلا أن بوجودها على الكومودينو، أنام ملء عينَي من المساء حتى الصباح. أمر حزين مثل حزن العالم. أليس كذلك؟

ـ نعم، ليس حزينًا على الإطلاق.

ـ لا تجيد سوى التحدث، فأنت تنام في صحبة صخب الطبول!

ـ عادةً أقضي على نفسي قبلها بالشراب.

ـ إنها رذيلة.

ـ وما الذي ليس برذيلة؟

حلت لحظة من الصمت، مكثا خلالها للاستماع إلى الأنفاس. العبارات الأخيرة تسببت في نوع من الإحراج الغريب. عندما زادت غرابة الموقف، قالت نيفيس:

ـ لوريانو.

ـ نعم.

ـ اسأل الطبيب الذي بداخلك: هل من الطبيعي استبدال دجاجة عرجاء بزوج وألا أشعر بأنني أفتقده أبدًا، ولو لنصف دقيقة؟

رفع بوتاي عينيه نحو السماء:

ـ الحزن يتسبَّب في مزاحات من هذا القبيل، سترين أن...

وفجأةً حلت عليه استنارة ما:

ـ هل قلتِ إنها عرجاء؟

ـ أجل، هي كذلك بالفعل... لديها رِجل معطوبة.

ـ لا بد أن هذا هو الأمر إذن. هل هناك أي قيح؟ تلوث؟

ـ أبدًا. إنها قصة قديمة، على الأقل مرت عليها سنة. فُرمت قدمها فقط. مثلما حدث لفافيلِّي، أبقت له المخرطة ثلاث أصابع يمنى، لكنه لم يمت. ولا يزال يقود الجرار، على الرغم من أنه يجب عليه ألا يفعل هذا.

ـ ألا تزال نائمة؟

استدارت نيفيس لتنظر نحو الصالون:

ـ تبدو عملًا منحوتًا.

ـ يا لسعدها.

ـ بدأت أشعر أيضًا ببعض الخوف.

ـ جرِّبي الملح.

ـ لكنك ستمر غدًا، أليس كذلك؟

مكث لوريانو صامتًا. في النهاية، أطلق العنان لما يؤرقه:

ـ اسمعي، هل ترين أن هذا يصلح؟

ـ ماذا؟

ـ موضوع وضع الدجاجة على الكومودينو.

ـ ماذا؟

ـ هل هذا يساعدكِ على النوم العميق؟

ـ آه... أجل... لقد وُلدت من جديد. أمي المسكينة كانت تستخدم صرصارًا.

ـ صرصار؟

ـ لقد أنقذ لها أعصابها.

ـ صرصار؟

ـ كانت تضعه في صندوق صغير. كان يُدعى جوليلمو. عندما قصت عليَّ هذا الأمر، ضحكتُ كثيرًا.

ـ أُصدِّقكِ.

ـ إلا أنه أنقذها من الانهيار. كانت تتحدث معه.

ـ وماذا كانت تقول له؟

ـ لم أكن موجودة معها، فلم أكن وُلدت بعد. على كل حال أنا أحكي حكايات لجاكومينا.

دار رأس بوتاي، سواء بسبب النبيذ أو بسبب المدافع

التي يسمعها من منزل عائلة راوُلّي. مع كل كلمة تُكشف أوراق غير متوقعة. كل ما عليه عمله هو ترك المساحة لتخرج كلمات تلك الأرملة، وعندئذٍ تُفتح مشاهد كثيرة:

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل حكاية جوكو المجنون. وجود جاكومينا على الكومودينو أعاد سيلًا من الحكايات إلى ذهني، حكايات جدتي لاندا. تتحدث عن أشياء تعود إلى قرن مضى...

من جهة لوريانو بدأت تصل ضوضاء متكررة، أصغت نيفيس السمع.

ـ هل دخلت حشرة زيز منزلك؟ لكنه ليس الموسم بعد.

ـ إنها دوناتيلّا. هل فهمتِ الآن ما أقصده؟

ـ مسكينة.

ـ هي. وماذا عني؟

ـ تبدو كالمحرِّك.

ـ بل هي قدري.

ـ أنت تبالغ. فهي امرأة ماهرة.

ـ لا شك في هذا. حتى إنها تخرق طبلة أذنَي القاطن فوقنا أيضًا.

ركزت نيفيس قليلًا:

ـ تقصد باليوكي؟

ـ هو بعينه. لكن هذا مجرد قول.

ـ كم كان وسيمًا في شبابه. ما إن يمر في الطريق، حتى تجن كل الفتيات.

لم يعرف لوريانو بما يجيب. في النهاية خرجت منه: «إيه...» بالكاد يمكن تمييزها. وبدت له لحظة مناسبة لكي يحاول:

ـ نيفيس، أنا...

ـ في شبابه كان يذهب إلى المدينة ليعمل مرافقًا للنساء بالأجرة.

ـ أجل... سمعت عن هذا.

ـ كل شخص يفعل ما يحلو له.

ـ إنها أزمنة أخرى يا نيفيس، الآن...

ـ ما حدث مع روزالتيا كان مقلبًا باردًا.

ـ أيتها العذراء! انظري ماذا تحضرين إلى ذهني الآن!

ـ قال الجميع إنها لم تكن في كامل قواها العقلية، لكن في الحقيقة كانت عاشقة ولهانة.

ـ إنها أشياء تُفسر عادةً بطريقة سيئة.

ـ وبسبب أنها هُجرت يومًا ما، ألقت بنفسها من فوق برج جرس الكنيسة.

ـ كنتُ هناك.

ـ كيف؟

ـ في يوم الحادث كنتُ هناك، في الميدان الصغير.

ـ هل رأيتها تسقط؟

ـ تقريبًا. كنت أشرب القهوة على إحدى طاولات المقهى. يبدو لي أنني أرى من جديد كل شيء الآن: بسطات السوق، وأنا أتحدث مع تانكريدي، رحمه الله. وفي لحظة ما تصل إلينا رطمة خافتة، كأن أحدهم ألقى كيسًا من الأسمنت من الطابق الثالث.

ـ لم يكن كيس أسمنت.

ـ لا.

ـ كانت روزا.

ـ بملابس النوم.

ـ لم أعرف هذا.

ـ حلمتُ بهذا وقتًا طويلًا.

ـ فقدت الوعي عندما أخبروني.

ـ هذا ما حدث لكل مَن عرفها.

ثم ساد بعض الصمت. أوشك بوتاي أن يستغله لينهي المكالمة التي اتخذت منحى مختلفًا ـ بعد الدجاجات والصراصير ـ لتُذهب النعاس عن ملاك. لكن كانت نيفيس أسرع:

ـ ترى كيف هو الأمر؟

تمنى لوريانو أن يطلق على نفسه الرصاص:

ـ ماذا؟

ـ أن يؤرق ضمير أحدهم شخص ميت.

ـ دعينا لا نتحدث عن حماقات. إن ما قاد روزالتيا إلى برج الجرس هو بداية مرض ما. لم يكن لريناتو دخل في هذا.

ـ إذا لم يكن وحشًا، لا بد أنه سأل نفسه بعض الأسئلة. ربما لو استجاب لتوددها لظلت على قيد الحياة.

ـ لا أحد يقع في الحب بالأمر.

ـ حسب ما أعرفه، لم يكن لدى العزيز باليوكي أي مانع أن يلقي نفسه أسفل تنورتها من حين إلى آخر.

ـ نيفيس، لم نكن مصنوعين من الخشب بل مجرد صبية.

ـ تعرف أن فتاة مسكينة تلتهمها المشاعر حتى النخاع، وأنت ماذا تفعل؟ تستغل ذلك بشراهة. مجرد نزوة بالنسبة إليك، وبالنسبة إليها إمكانية ما. بعدها بدقيقة تراك مع أخرى. لا بد أن تلك الفتاة المسكينة تؤرق ضمير العزيز ريناتو باليوكي. على كل حال، حسبما أعرف فهو لم يتزوج قَطُّ. أليس كذلك؟

لا بد أن لوريانو اجتهد كثيرًا حتى لا ينهي الحوار فجأةً، همس منهكًا:

ـ هو كذلك.

ـ كل تلك الألعاب النارية في البداية، وها هو الآن، مجرد كلب وحيد في مواجهة مرحلة الشيخوخة المهمة.

لم يكن بوتاي راغبًا في الاستسلام أمام هذه المرأة، وأراد وضع النقاط على الحروف:

ـ أنا أراه في أحسن حال.

ـ مَن يدري؟ ربما تهاوى من الداخل.

ـ لا يبدو لي هذا. يستيقظ مبكرًا في الصباح، ويتمشى كأصغر شاب. بدأ حاليًّا فقط في فقدان بعض شَعره الخلفي، بينما حدث لي هذا منذ زمن بعيد. لا يبدو أن قيادة الحافلات أثَّرت في لياقته البدنية إطلاقًا. بل والأدهى من ذلك، لا تزال النساء ينظرن إليه، حتى مَن هن أصغر منه بعشرين عامًا.

ابتلعت نيفيس ذلك الهجوم المضاد كسُمٍّ في حلقها:

ـ هذا يعني أنه لا يزال يفكر بالجزء الأسفل من حزام البنطال. نعرف جميعًا أن الحياة ليست كلها في المتع الحسية. إنكم جميعًا مثيرون للشفقة.

اكتشف بوتاي أنه يتسلى. أن يضايق تلك الصديقة القديمة التي أفسدت عليه نومه بما عليه باليوكي، بدت له طريقة جميلة في الانتقام.

ـ جميعًا؟ وما دخلي أنا؟

ـ أنتم الرجال جميعًا مصنوعون من قالب واحد.

لم يفقد قبضته. عثر على ثغرة عارية، واستمر في الوخز:

ـ ولماذا أنتِ غاضبة إلى هذا الحد؟! ماذا يهمكِ من حال ريناتو؟

ولم يستطِع أن يمنع نفسه، فأضاف:

ـ هل هذا يعني أنه لسعكِ أنتِ أيضًا؟

ثم ندم فورًا على ما قاله. لم يكن جيدًا أن يقول شيئًا من هذا القبيل لامرأة ترمَّلت لتوها.

وتفوهت نيفيس بما لم يتوقع بوتاي أن يسمعه على الإطلاق، نطقتها بكل هدوء:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فما يسري عليَّ يسري أيضًا على دوناتيلَّا.

طار بعض الكحول الذي في جسده على الفور:

ـ ماذا؟ معذرة!

ـ كنا جميعًا فتيات... ولسنا قطعًا من الخشب.

ـ ماذا؟ معذرة!

ـ ما قلته للتو.

ـ زوجتي دوناتيلَّا؟ مع باليوكي؟

انفجر لوريانو في ضحكة مصطنعة، وجعلها تستمر بعض الشيء لتبدو تلقائية:

ـ نيفيس، ما هذا الذي تقولينه؟

ـ اسألها هي! اسأل مصدر النفير الذي لديك هناك! اسألها عن مذاقات بعض الأمسيات الصيفية التي مرت علينا عند مجرى النهر!

ـ أنتِ تمزحين، أليس كذلك؟

ـ بالتحديد في شهر يوليو عام ١٩٦٦. لكن ربما أخطأتُ. قد يكون أغسطس.

أسرع بوتاي للقيام بحساباته. وأخذ يعد على يديه. كانت الحسبة سهلة، لكن جعلته الدهشة يعيدها ثلاث مرات. وفي النهاية كان واضحًا، وقالها كأنه يفكر بصوت مرتفع:

ـ كان عمرها سبعة عشر عامًا.

ـ تمامًا مثل مُخلصتِكَ.

يعرف لوريانو أنه ليس أول مَن لمس زوجته. قبلَه ـ على سبيل المثال كان ذلك الناندو، وآخر لم يعد حتى يتذكر اسمه. حكايات عمرها شهور، أو عام على الأكثر. فيما يخصه جذب انتباه دوناتيلّا وهي في العشرينيات. لكن كون ريناتو باليوكي قد وضع أنفه في بعض المناطق الحساسة، هو أمر لم تقُله له قَطُّ. لم تكن أماكن مقدسة، لكنه شعر بالألم على الرغم من ذلك. قال:

ـ لم تقُل لي هذا قَطُّ. لا بد أنكِ مخطئة.

ـ معذرة! وما الخطأ في هذا؟

أصر بوتاي على أن يبدو هادئًا:

ـ لا شيء بحق السماء.

ـ تبدو غاضبًا، يبدو أن الأمر لسعك أيضًا.

هدَّأ لوريانو نفسه، وأدرك اللعبة التي تحدث. شعر بالشفقة على نيفيس؛ فهي هناك في منزل ربوة كوربِلُّو، ترافقها فقط دجاجة مسحورة، ولا تريد أن تترك الهاتف. وفي أول فرصة واتتها ألقت نفسها لتهدد هدوء زيجة تبحر نحو نصف قرن من السعادة، بينما لم يعد لزواجها وجود. لم يكن يكلفه شيء أن يعذر تلك المرأة المسكينة. زال تأثير الكحول تقريبًا، تبقى منه بعض الشعور بالصدمة فقط، تسبب في دغدغة وجهه. ثم مَن الذي يهمه أن دوناتيلَّا قد تسلت في الحقول؟ لم تكن إهانةً له. نظر تجاه الغرفة، من حيث يصل غطيط يليق بغولة. فكر، ثم قال:

ـ قضيتنَّ وقتًا مسليًا. أنا سعيد لأجلكن.

ـ أهم شيء هو عدم ترك أنفسنا للتراخي.

ـ ماذا؟

ـ أقصد مع باليوكي.

ـ آه. هو مرة أخرى.

ـ تلقي الواحدة منا نفسها فوقه، وتستمتع بالعشرين دقيقة كما قال الكتاب. لكن إذا بدأت الواحدة في كتابة الخطابات العاطفية، يهجرها على الفور.

ـ على الأقل كان واضحًا.

ـ لا بد أن تكون الواحدة منا حمقاء لكي ترتبط بآلة من هذا النوع. صُنع ريناتو باليوكي بعناية فائقة من يد ذهبية، لكن مَن تلك التي فكرت فيه بطريقة جدية؟ مجرد التفكير في تكوين أسرة معه، معناه قبول قرنين على الرأس. كان الأجمل أن نتقاسمه فيما بيننا، نحن الخبيثات، وأن نتحدث عن الأمر بعض الشيء، كما تفعل الفتيات في مثل عمرنا.

«العاهرات» فكر لوريانو. وبعدها على الفور شعر بصدمة في معدته، لأنه رأى بينهن دوناتيلَّا أيضًا.

اختتمت نيفيس:

ـ رغبة واحدة منا في الاستحواذ على باليوكي فقط لنفسها، كانت مثل الإدانة بالموت.

تحدث بوتاي من دون أن يفكر:

ـ وهذا ما حدث لروزا.

ساد الصمت. ذلك الذي يسبق العاصفة، حيث تبدأ الوحوش في التحرك من العمق. أمسكت نيفيس بأحدها:

ـ ماذا تقصد؟

ـ لا. لا شيء!

ـ الأمر معها كان مختلفًا، بالتأكيد تسبب ذلك في مرض ما.

ـ صحيح.

ـ كانت قد توحشت وأرادته كله لنفسها.

ـ فلترقد بسلام.

ـ تريد أن تحمِّلَني أيضًا هذا الذنب بعد موت زوجي؟

ـ أي ذنب؟

ـ أنت تعرف.

ـ نيفيس، حقًّا، لا...

ـ لم يكن الخطأ خطأنا.

ـ لم أقُل هذا، ولم أفكر فيه.

ـ استمر ريناتو في تقديم نفسه للأخريات، وآلمها ذلك. ثم إنها كانت جميلة.

ـ يجب ألا تقولي أكثر من هذا.

ـ كنا نذهب إلى مجرى النهر، لكن ليس بغرض إغاظتها.

ـ حسنًا، اهدئي!

ـ أشعر بالخوف الآن.

ـ من ماذا؟

ـ أتخيل روزالتيا هنا، بثوب النوم ورأسها مهشم.

ـ لا يوجد أحد.

ـ لقد استدعيتها الآن. ربما أذهب إلى الحمام وأراها في المرآة.

ـ نيفيس، لا تنطقي بالخرافات.

ـ ربما هي مَن تلبَّست دجاجتي. بمجرد أن أضع السماعة ستفتح منقارها وتبدأ في التحدث معي.

ـ إنها فقط منومة مغناطيسيًّا.

ـ لكن استمر الأمر وقتًا طويلًا. إذن هذا ما أرادته: أن أتصل بك، وأن أبدأ بالنبش في أشياء مر عليها أكثر من خمسين سنة، وتقتلني بعدها بسكتة قلبية. هل انتبهت لهذا؟

ـ لماذا؟

ـ لا لم تنتبه.

ـ ماذا؟

ـ فرناندا ديماريا على سبيل المثال.

رأى نفسه في جنازة تلك الصديقة العزيزة، من نحو عام مضى:

ـ وما دخل تلك المسكينة الآن؟!

ـ لورينزا توتشي. ومن دون الأخذ في الحسبان مَن سقطن منذ عقد أو أكثر مثل بونيلِّي. هل فكرت في بونيلِّي؟ أو فاندا... تلك المرأة الضخمة. رحلن جميعًا.

ـ نيفيس!

ـ لقد بدأت روزا فعلًا.

لم يستطِع لوريانو أن يمنع نفسه، شعر بقشعريرة بدأت تصفف شَعره بالعكس. اجتاحه خليط من التسلية والألم. الوحدة الإجبارية لتلك المرأة أيقظت أشباحًا لم يتوقعها:

ـ هل أنتِ جادة؟!

ـ إنها تحصدنا واحدة تلو واحدة. بالنسبة إليَّ بدأت بأنتيو. كان لا بد أن ترى نتيجة تحاليله... كان كالجوهرة، لا يشوبه أي عيب.

حاول بوتاي أن يؤدي عمله على أكمل وجه، فعلى ما يبدو عليه أن يؤدي دورًا آخر، أكثر دقة بكثير من أن يعيد الوعي إلى دجاجة ظلت محشورة في إشارة دعائية، قال:

ـ الموت أمر طبيعي. ماتت بونيلِّي تقريبًا في سن الثمانين، هل يبدو لكِ هذا لعنة أحد الأرواح؟ إذا كان لا بد من عقاب الأحياء، فالحياة نفسها عقاب كافٍ. لا داعي لإزعاج الأشباح التي في هذه الحالة لها اسم آخر.

ـ أي؟

ـ ما يدريني؟! الشعور بالذنب مثلًا؟

ـ الشعور بالذنب؟

ـ مثلًا!

ـ ومَن سيكون هذا الشبح الصغير؟

ـ ما ترينه.. أو ذلك الذي ترغبين في رؤيته.

شعر لوريانو بأن نيفيس تفكر قليلًا. وهذا في حد ذاته مناسب لأن يستغل الوقفة ويتمنى لها ليلة سعيدة، لكنه لم يكن حيوانًا؛ فالصديقة تشعر بالخوف، وتتقيأ أشياء من الماضي تزورها في الليل كأشباح. لم يرد أن يشعر بالذنب تجاهها.

أكدت نيفيس من دون أن تتأثر على الإطلاق بكلماته:

ـ لقد بدأت بالفعل. فهي تفعل معكم ما فعلته معي... على سبيل المثال، كيف حال البروستاتا؟

استسلم بوتاي لغريزته ولمسها. لكنه أراد أن يبدو متماسكًا بوصفه طبيبًا حقيقيًّا:

ـ لنتحدث بشكل واقعي.

ـ ألم تبرز شعيراتك الدموية؟

ـ ماذا؟

ـ حول عينيك. وجنتاك أيضًا ألم تمتلئا بشبكات من البقع الدموية على الجلد؟ ربما ارتفاع ضغط الدم هو السبب.

خطا لوريانو خطوة جانبية، لينظر إلى نفسه في المرآة الموضوعة بجواره. شيء يشبه النعش بصدأ على الحواف. أفضل جزء فيه البرواز، مشغول كله بورق الذهب. داخله تعيش انعكاسات الأجيال السابقة من عائلة بوتاي. قال عميد العائلة إن تلك المرآة تعود إلى بداية القرن التاسع عشر، حتى قبل اكتشاف إيطاليا الحساء. رأى نفسه مُشعَّثًا. وجنتاه ممتلئتان ومتماسكتان. أحيانًا يقول له رفاق لعبة الثلاث سبعات:

ـ هل وضعوك تحت المكبس؟

فيضحك هو. إلا أنه في داخله يسوءُه أن يفقد شكل الأيام الخوالي، الشكل الذي يتذكره عن نفسه. لم يتميز قَطُّ بالوسامة الشديدة، لكن كان شكله أحسن كثيرًا في ريعان شبابه، حتى وإن كانت صلعته تصل إلى رقبته. إلا أن بعض الخصلات لا تزال تقاوم على الجانبين وأيضًا في الخلف. لكن ما يميزه فعلًا هو لون عينيه، المائل إلى لون فضي نادر. لمس صدغه، غاص طرف إصبعه في اللحم حتى نصف ظفره.

ـ أبدو طبيعيًّا.

ـ وماذا عن الشرب؟

سمعها تقول من الطرف الآخر:

ـ ماذا عن الكرش؟ ألا يُنهك قلبك؟ في نهاية صعود خمس درجات من السلم ألا تشعر بقلبك في حنجرتك؟ قُل الحقيقة!

تسارع نبض بوتاي أيضًا في تلك اللحظة، وقال:

ـ لم أكن قَطُّ في صحة أفضل.

لكن الكلمات خرجت منه بطريقة سيئة مثل الحشرجة.

ـ أنت نفسك لا تصدق هذا.

ـ هل أصبحتِ طبيبة الآن؟

ـ على كل حالٍ، كانت دوناتيلَّا تتمدد في ظل شجرة الكستناء.

ـ خيرًا فعلتْ.

ـ وتسببت في مرض روزالتيا المسكينة. مثلنا جميعًا. مثل توتشي مثلًا، وديماريا.

بدأ لوريانو يشعر بشيء من الدوار بين الطيور المنومة مغناطيسيًّا أو الموضوعة فوق الكومودينو، وغزوات أسفل تنورة زوجة شابة، وأشباح العاشرة ليلًا. أخذ يجرجر خفيه على البلاط، ثم قال بحسم:

ـ نيفيس، تأخر الوقت الآن.

ـ أنتيو أيضًا بدأ بالطريقة نفسها، التعب. في الأوقات الأخيرة كان لا بد من طلقات مدافع لينهض من الفراش.

ـ أنا أستيقظ في السادسة صباحًا، معذرة إذا...

ـ مع القهوة بالحليب و«الفرنت»؟

ـ شيء لا يخصكِ.

ـ ثم تستمر في الشرب حتى المساء. بلا هدنة.

ـ إنه شأني الخاص.

ـ هذا ما تفعله معكم.

ـ مَن؟

ـ روزا.

ـ روزا؟

ـ ستغرقك بأطنان من الزجاجات المعلقة في عنقك. ألا ترى ذلك، وربما لا تشعر بذلك كما ينبغي. اهدأ، سيتضح لك كل شيء مرة واحدة.

لوهلة انقطعت أنفاس لوريانو. في لحظة حاول أن يفكر في كم ما شربه طوال حياته: أصبح فعلًا على حافة القبر. ثم تمرد ضد الفكرة:

ـ هراء. لم يدفعني أي شبح إلى الشرب.

شعر أيضًا بأنه أحمق لأنه قال هذا.

ـ لديك عمل جيد، وزوجة استثنائية. ابنكما أماديو لديه مستقبل في قطاع البنوك، ومنذ أعوام عدة منحكما حفيدًا يتمناه الجميع. منزلك ملكك، وتذهب إلى البحر في الإجازات. ماذا ينقصك؟

شعر لوريانو بالضيق بسبب عملية الفحص تلك. ماذا تريد

تحديدًا تلك الأرملة الأرِقة؟ هذه مكافأة مَن يمنح كتفه ليبكي أحدهم عليها ويشكو وحدته؛ أن يجد نفسه محاصرًا مقابل الجدار. أجابها بنبرة حادة:

ـ لا ينقصني شيء.

ـ إذن ماذا هناك؟

ـ اسمعي، كيف لي أن...؟

ـ إنها روزا.

ـ إذا أردتِ تسمية الأمر هكذا.

ـ وماذا إذن؟

ـ تسليني.

ـ بل تقتلك.

ـ حسب معلوماتي، ما زلت على قيد الحياة.

ـ حتى الآن.

هذه المرة كانت اللطمة قوية جدًّا إلى حد أنها رنحت لوريانو:

ـ ألا يكفي هذا؟

ـ لقد تمكنت منكما.

ـ تتحدثين عن شبح يقضي على الأشخاص ـ في نهاية حياتهم ـ انتقامًا. نوع غريب من الانتقام.

ـ ذلك الأكثر شرًّا. تعرف تمامًا العلاقات التي تربطنا.

ـ ربما يمكنها أن تنتقم من باليوكي، وينتهي الموضوع. عمومًا فهمت ماذا تريدين أن تقولي.

ـ ماذا أريد أن أقول؟

ـ إن روزا هي الشيء الذي لدينا جميعًا، ذلك الشيء الذي يؤرق نومكِ.

ـ الذي يجعلك تشرب.

ابتسم لوريانو بمرارة:

ـ حسنًا أنا أيضًا لديَّ روزا تخصني. ارتحتِ؟

ـ والآن كيف تجد وضع ريناتو؟ كل هذه الوسامة وليست لديه أسرة.

ـ بسبب روزا.

ـ بالضبط.

في النهاية كانت طريقة مسلية لتسمية الأشياء، حتى وإن كانت مخيفة. لم يكن واضحًا لبوتاي إذا كانت صديقته تعني الشبح مجازًا أم تصدق ذلك بالفعل. وبدا له أنهما

وصلا إلى وقفة مقبولة لإنهاء المحادثة. وفكر في الكيفية التي سيقضي بها ليلته. في ضوء الكلمات الأخيرة سيكون نزع الغطاء عن زجاجة جديدة وتغذية سكره أمرًا مستبعدًا، لأنه سيجلب إلى نفسه النحس بيديه. ربما عليه أن يمسك كتابًا من جديد، شيء لم يحدث منذ مدة طويلة. إلا أنه لا بد أن يضع قطنًا ليسد أذنيه.

إلا أن نيفيس أحرقت إمكانية الوداع:

ـ لكنها مخادعة مع دوناتيلَّا.

ـ كيف؟

ـ فكِّر قليلًا أين وضعتها؟

ـ لكن مَن؟ ماذا؟

ـ روزا. مَن ستكون؟

تراجع بوتاي عن الشكوك التي انتابته قبلها بدقيقة:

ـ والآن ماذا فعلت؟

ـ أنت وأنت معها بالداخل ـ بكل ذكائك ـ كيف لا ترى ما يحدث؟

ـ نيفيس، إمَّا أن تتحدثي وإمَّا...

ـ يكفي أن ترفع عينيك نحو السقف.

انتابت لوريانو قشعريرة. تخيل أنه يرفع نظرته إلى أعلى ويجد تلك الفتاة المسكينة من الماضي، ممددة هناك فوق. ممددة في الوضع الغريب نفسه، الذي رآها عليه في ذلك اليوم المشؤوم في الميدان الصغير. وفي النهاية قال:

ـ لا أرى أي شيء.

ـ إذا كانت لديك النظرة التي تعبر الجدرانَ، لما مكثت حيث أنت.

عندئذٍ فقط فهم بوتاي:

ـ تقصدين باليوكي؟

ـ هل فهمت الهدية التي قدمتها لدوناتيلَّا؟

ـ نيفيس، من البداية وأنتِ تتحدثين معي بالألغاز!

ـ يجب على السلاسل أن تستمر في الصليل المرتفع.

ـ لا أفهمكِ!

ـ أصدقك، فالشرب بإفراط يمكن أن يفعل أكثر من هذا.

ـ لا أفهمكِ فعلًا!

ـ أجب عن هذا السؤال.

ـ لنسمع!

ـ مَن سكن فوق شقتكم في الماضي؟

وُلد لوريانو وكبر في هذا المنزل. يتذكر جيدًا المسن أنسانو وزوجته المجنونة بعض الشيء، والمصابة باستحواذ تجاه القطط السوداء. كان منزلهما مليئًا بها. أحاطت بهما ـ مدة طويلة ـ شائعتان: الأولى، أنهما ربما يأكلان القطط. يجعلانها تتزاوج فيما بينها، في زواج محارم ضخم بين الأمهات والأبناء والآباء والأخوات، لتنتهي بها الحال كلها في آنية الطهي، من حين إلى آخر من دون أن تلفت النظر، وهي عادة استمرت منذ وقت الحرب ـ يقول الخبثاء ـ إذ عانى الناس مجاعة شديدة، دفعتهم إلى لحس الجدران. الأسطورة الثانية، أن نورما ساحرة. والصبي بوتاي كان يحب النظرية الثانية مثل كل الصبية في عصابته. قال، وقد أبهرته تلك الذكريات:

ـ كنا نصعد ومعنا مقاليعنا. كنا مهرة في التسديد بالحجارة. عادةً نصعد ثلاثة: أنا وباريده دي لورينزي وأورنيلّو باكيتِّي المشهور بريزيزتي. نتخذ مواقعنا على جانب المنزل ونسدد نحو جرس الكنيسة الصغيرة.

ـ شيء مُسلٍّ.

ـ أجل، لأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك ساعات كثيرة. ونورما تعتمد على دقات الجرس لتُعد الغداء،

ومن ثَمَّ تغلي المعكرونة. نجلس في الزاوية والهدف في المدفع. ثم تصل دقات الساعة الحادية عشرة. دون، دون، دون. وبعد الدقة الأخيرة يُطلق أوَّلُنا الحجر. إذا أخطأ الهدف يلحق به الثاني ومطاطه مشدود فعلًا. دون. ونحوِّل الساعة من الحادية عشرة إلى منتصف النهار. تبدأ نورما في إخراج الأواني؛ فزوجها على وشك الوصول.

ـ تسببتم في جنون العجوز المسكينة.

ـ يعود أنسانو من المتجر ويجد المعكرونة كالصمغ على الصحن، فيبدأ في السباب ونحن في الاستمتاع. لكن مثل نورما وقعت نساء أخريات في الفخ. وعندما انطلت الخدعة على أمي يومًا ما، توقفتُ. كان لا بد أن آكل «التاليوليني» بالزبدة، وبدت لي جيرًا. وفي تلك المدة لم تكن عادتنا إلقاء الأشياء.

تنهد لوريانو بشدة:

ـ إذا ظهر أمامي الآن هذان المسنَّان، لاحتضنتهما بقوة. كل هذا لأقول إنني فعلًا أعلم مَن سكن الطابق الأعلى.

شحذت نيفيس لسانها، فهي لم تتأثر على الإطلاق، وفي نيتها الاستيلاء على مجرى الحديث:

ـ على حسب ما أعرفه بعدها ظل منزلهما خاليًا من السكان بعض الوقت.

ـ صحيح.

ـ ثم؟

ـ ثم سكنه ريناتو. باع منزل عائلته الذي كان كبيرًا جدًّا ليسكن فيه شخص بمفرده.

ـ وعثرتما عليه فوقكما.

ـ على ما يبدو.

ـ هو تحديدًا؟

ـ هو تحديدًا.

ـ ودوناتيلَّا تسكن الطابق الأسفل.

ـ وأين كانت ستسكن؟

ـ دوناتيلَّا نفسها، التي مثل عديدات تنزل عند مجرى النهر. انتبه جيدًا، لم تنزل هناك لتقطف زهور الأقحوان، بل إن ما يهمها هو نوع آخر من الجذوع!

ـ لا أريد أن أعرف أي نوع.

ـ جميل وقوي، كبداية للوصف.

ـ نيفيس، من فضلك!

ـ أعوام قاسية.

ـ بأي معنى، معذرة؟

ـ من العذاب.

ـ أي عذاب؟

ـ على كل حال، نفهم بعضنا جيدًا.

ـ لا لم أفهم أي شيء.

ـ أنت في جولاتك، لتضع ذراعيك في فروج البقرات. وهي هناك، وحيدة في المنزل. مَن يدري كم الملل الذي تشعر به. ولكي تسري عن نفسها بعد المهام المنزلية يوجد التلفزيون، أو تحركات ذلك السيد في منتصف العمر الذي تعاهد مع الشيطان، فلم تمسه الشيخوخة. فقد مرت الأعوام، لكنه لا يزال يبدو ذلك الشاب في عام ١٩٦٦.

ـ دوناتيلَّا تتجسس على ريناتو؟

- أنت تعلم بالطبع كيف يحدث هذا؟

ـ لا.

ـ لا تعلم كل شيء!

ـ قولي لي أنتِ!

ـ من حين إلى آخر تجد نفسك في سن معينة، وتجد نفسك في المنزل مع عائلتك. في بداية حياتك كنت شعلة نشاط، وعلى استعداد أن تشق البحر نصفين مع كل خطوة. تبدأ الأربعينيات وتتحول إلى شخص آخر. مع الخمسينيات يزداد الأمر سوءًا. تطحنك الأيام المتشابهة: يصل رأس السنة وبعد وهلة تبدأ احتفالات عيد الميلاد من جديد، وهكذا. والشعور بالرضا الوحيد هو أنك استطعت أن تسدد فواتيرك.

ـ شكرًا للسماء أنها لا تزال على هذه الوتيرة.

ـ ثم يحدث أن يبدأ دماغك في التحرك. يعلم الجميع هذا. مع الحيوات الثابتة تُبحر الأحزان. ويبحث المرء عن طريقة ليبعد الشعور بالضياع. التفكير من جديد في حب قديم يمكن أن يحل مشكلة الأوقات الرتيبة. وهكذا تجد المتعة في أن تغوص في عصور معينة، عندما لم تكن الحياة بهذا الملل القاتل، وكل شيء لا يزال أمامك.

ـ دوناتيلَّا تُفكر في ريناتو؟

انفجر لوريانو في الضحك مرة أخرى، وهذه المرة ضحك فعلًا من قلبه، وقال:

ـ لا تحتاج إلى ذلك فهي تراه كل يوم.

ـ بالضبط.

ـ ماذا؟

ـ إنها تراه كل يوم.

ـ إنه يسكن فوقنا. منذ عشرين عامًا هو الشخص الذي أبادله تحية الصباح كل يوم في طريق خروجي من المنزل.

ـ بالضبط.

ـ نيفيس، أنتِ تتسببين في قلقي الشديد. تحدَّثي بوضوح!

ـ تمتعت دوناتيلَّا في شبابها بجمال شديد.

ـ صحيح.

ـ اليوم هي شيء مختلف تمامًا.

ـ يحدث للجميع.

ـ زاد وزنها كثيرًا.

ـ فعلًا بعد أماديو لم تستعِد رشاقتها السابقة. مسألة قوام.

ـ لا بد أن هذا مؤلم للغاية.

ـ ماذا يجب أن أقول لكِ! تتحدث عن هذا بصعوبة. أنا

أدرك هذا، فهي تكره المرايا. ربما لم تعد تتحمل رؤية نفسها بهذه الهيئة، تُفضل أن تعيش بالفكرة التي ظلت لها عن نفسها، تلك التي ترجع إلى عشرين عامًا. في النهاية هو شيء حدث لي أنا أيضًا. أحيانًا ألمح انعكاسي في زجاج ما، وأشعر بالضيق وأقول لنفسي: «مَن هذا؟». شعور مثل حجر يقبع في معدتك. لكنها الحال بالنسبة إلى الجميع.

ـ لكن ليس بالنسبة إلى ريناتو باليوكي.

ـ حصل على رضا القدر. محظوظ.

ـ فكِّر في العذاب.

ـ مرة أخرى!

ـ فهم أحدنا الآخر.

ـ ماذا؟!

في الحقيقة، بعدها بلحظة فهم لوريانو، لكنه لم يقُل هذا. انتظر أن تتفوه نيفيس بالأمر. ومن الناحية الأخرى وصلت إليه كلمة واحدة جافة:

ـ المقارنة.

ـ آه! هذا الأمر.

ـ فهي محكوم عليها أن تعيش تحت نظر «أدونيس» الذي كان يثير رغباتها في شبابها. هو ظل على حاله، بينما تحولت هي إلى سفينة.

ـ حسنًا، دعينا لا نبالغ الآن!

ـ عذاب شديد.

تنهد بوتاي. ألقى نظرة على الغرفة، حيث لا يزال المصباح مشتعلًا، وسيمفونية الأنف في التصاعد. شعر بتعاطف شديد مع المرأة التي ترقد هناك. من جهتها هبطت المرتبة. ترتدي دوناتيلَّا دائمًا قمصان النوم حتى في الصيف، ولا تتخلى عنها. عندما يمارسان الحب تطفئ النور. لم يرَها لوريانو عارية منذ أعوام طويلة. وقال:

ـ لا تزال امرأة جميلة.

ـ لا شك في ذلك.

تمتم بوتاي وتقريبًا بابتسامة على شفتيه:

ـ إذن ريناتو هو روزا بالنسبة إليها؟!

ـ إذا أردت أن تقول هذا.

هوَت موجة الثرثرة من جديد إلى البئر الفارغة من الأقوال، الآن يمكنه أن يقول: «حسنًا، شكرًا على المكالمة، ليلة

سعيدة». لكن الآن وقد فُتحت أمامه عوالم كثيرة، وجد لوريانو نفسه معلقًا أمام ذلك الاحتياج، فلينتظر دقيقتين أخريين. في نهاية الأمر لم يتصل هو، ومن ثَمَّ بخلاف النوم ليس لديه أي شيء آخر يخسره.

ـ نيفيس، أتعرفين فيمَ أفكر؟

ـ فيمَ؟

ـ إن دوناتيلَّا هي روزا التي تخصني. أو على الأقل، واحدة من الأشباح التي أراها.

ـ قلت لك، فهي تستهدفنا من مدة طويلة.

تنهد وقال لنفسه: «العجوز الحمقاء». لكنه لم يفقد الشعور بتلك الموجة الحزينة التي جرفته بينما هو في ملابس النوم وأمام طاولة الهاتف:

ـ لقد دُمرتْ بعد إنجاب أماديو، وبدأت مرحلة المشاجرات بسبب الوزن. وكرهتني أنا أيضًا. ربما في ذلك الوقت بدأت أنا باللجوء إلى الشرب.

ـ في ذلك الوقت بدأ الانتقام.

ـ يبدو لي أنني أتحدث مع الجدار.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء.

ـ أحيانًا كنت أستمع إلى الفضفضة. أتذكر كيف كان الأمر الآن.

ـ من دوناتيلًا؟

ـ لا، ريناتو. كان لا بد وأن تراه بلا تيشيرت، هناك بجوار مجرى النهر، في عز صيف يوليو، وغناء صراصير الحقل يتصاعد حوله من كل جهة. كان يشبه تمثالًا برونزيًا.

أوقف بوتاي تلك السحابة من الانفعال. وبدلًا من نيفيس تخيل زوجته في شبابها، على وشك أن تعيد ارتداء لباسها الداخلي. لم يتخيل هذا قَطُّ، لكن ها هو يجد نفسه في إحدى ليالي يوم ثلاثاء عادي، وهو تقريبًا يشعر بالغيرة عليها. شعر ببعض الندم، لكنه فضَّل أن يعود مرة أخرى إلى حساء المفاجآت المُعد له:

ـ ماذا كان يقول؟

ـ لم تكن روزالتيا تمنحه أي هدنة، أخذت تتبعه. يجدها في كل زاوية. أغرقته بخطابات لا يقرأها. وفي إحدى الأمسيات بعد أن انتهينا من أمورنا، قال: «ربما هي هنا في الجوار الآن». شعرت بالقشعريرة فأنا لا أزال مكشوفة النهدين. ومنذ تلك اللحظة تغير شيء ما. لم يكن سهلًا

التمنع مع ريناتو، بمجرد فتح تلك الزجاجة يصبح الولع واحدًا: شراب من هذا النوع لا يمكن العثور عليه في أي مخزن. بمجرد أن تمر عشر دقائق، ترغب في أن تُمسك ـ من جديد ـ بالزجاجة بين يديك. هل تفهم ما أعنيه؟

ـ واضح يا نيفيس، واضح.

ـ إلا أن فكرة وجود عاشقة ـ مجنونة تتجسس عليك ـ تُغير كل شيء. لم يكفِ أن نغير المكان: عند المجرى أو في نهاية زقاق ما، تظل عينا روزا السوداوان في الهواء. ربما أحب ريناتو أن يشعر بوجود مَن يتلصص عليه. إلا أنه كان عاشقًا ماهرًا، لديه مجموعة من الأشياء الثابتة. إذا وقعت إحدانا بين يديه، فمن المستحيل ألا ترضيه. ثم كنا فتيات جائعات للمعرفة.

ـ استمري من فضلكِ.

ـ في لحظة ما أصبحت هي موضوع حديثنا الثاني عندما نتقابل. الموضوع الأول الألعاب التي تعلمناها حديثًا، ثم ننتقل إلى الحديث عن روزالتيا... تلك المجنونة. أصبحت تستهدفنا نحن أيضًا. ودوناتيلَّا بصفة خاصة، تتأثر كثيرًا بمقالبها.

ـ لا نزال نتحدث عن دوناتيلَّا زوجتي، أليس كذلك؟

ـ ومَن غيرها؟!

تنهد لوريانو:

ـ ومَن غيرها فعلًا!

ـ كنا نعثر على صحون صغيرة أمام باب المنزل.

ـ صحون صغيرة!

ـ بها بول.

ـ لا أعرف أي شيء عن هذا.

ـ وعن حبال مُضفرة على درابزين النافذة. موضوع بداخلها حصى.

ـ تبدو أعمالًا سحرية!

ـ أُصيبت ديماريا بزكام لم يفارقها قَطُّ.

ـ يحدث هذا أحيانًا عند تغيُّر الفصول.

ـ وأخذت تبصق بلغمًا بلا توقف.

ـ أجل. في ذلك الوقت يستمر الزكام طويلًا.

ـ أما توتشي؛ فبدأت تحك مرفقيها وأسفل أذنيها. تحك بشدة حتى ينزف جلدها.

ـ هذا داء الصدفية. ويتسبب فيه أيضًا التوتر العصبي.

ـ الأمر الأكثر سوءًا أصاب دوناتيلَّا.

ـ دوناتيلَّا زوجتي؟

ـ أصبحت رائحة فرجها كريهة للغاية.

ـ كيف؟

ـ لم يكن أي شيء ينزع تلك الرائحة. رائحة تسبب القيء من على بُعد عشرين مترًا. كانت تدخل أي محل فيهرب منه الجميع. إلى أن رفضت الخروج من المنزل.

نظر لوريانو مرة أخرى نحو غرفة النوم. إذن هذا هو سبب عدم معرفته بعض مغامرات الشباب، فقد انتهت بعار الالتهاب المهبلي. وسامح زوجته فورًا على كل شيء. إذا كان هناك من الأصل شيء فليغفره. وسأل بشيء من السخرية:

ـ وأنتِ... ألم يحدث لكِ أي شيء؟

ـ جافاني النوم.

ـ وهو ما يحدث هذه الأيام أيضًا، على ما يبدو.

ـ في نهاية أسبوع بلا نوم، لم أكن أتذكر حتى عنوان منزلنا. ترسلني أمي إلى الفراش ومعي أكواب من البابونج أو الناردين، بلا فائدة.

ـ الإيحاء يمكن أن يتسبب في مزحات ثقيلة.

استمرت نيفيس في التحدث كأنها تعيش من جديد تلك اللحظات:

ـ واحدة منا مصابة بالسل، والأخرى بالتقرحات. دوناتيلَّا سجينة في حجرتها، وقد وُصمت برائحة نتنة لجيفة. وأنا تحولت إلى شبح.

ـ غزوة جميلة من البكتيريا والاضطرابات المتنوعة.

ـ أصبح الأمر واضحًا: هناك لعنة ما. استمتعنا بالتسلية معريناتو باليوكي، لكن وقتها بمجرد أن نسمع اسمه أصبحنا نُصاب بالقشعريرة.

ـ أن تأتي متأخرًا أفضل من ألا تأتي.

ـ في صباح أحد الأيام أخذوا فريدا بونيلّي إلى المستشفى. حسبما فهمنا انفجرت الدماء من أنفها. وبعد أن أغرقت الملاءة لم تكن هناك وسيلة لإيقاف النزيف. وهي أيضًا هدأت. وبعدها بمدة وجيزة عادت لتنظر إلى زوجها فقط.

ـ انتشرت الجراثيم بين المجموعة ومعها التوتر العصبي.

ـ لم يتغير أي شيء بالنسبة إلى ريناتو: يذهب ليبحث عن متعته في مكان آخر. وبدأ بالفعل في التردد على المدينة.

ـ أتذكر هذا. أحيانًا كنت أقابله على متن الحافلة. بينما أنوءُ بثقل الكتب الكثيرة، يرتدي هو سترة جلدية مثل طيار أمريكي. أعجبتني السترة بشدة، لكنها باهظة الثمن. نسافر معًا. أرى نفسي مرة أخرى مكومًا بين المقاعد أدوِّن الملحوظات، بينما هو ينظر إلى الخارج.

ـ كان قد بدأ فعلًا.

ـ بدأ بماذا؟

ـ بالذهاب لدى العجائز المرحات.

ـ آه! تتحدثين عن هذا.

ـ أجل عن هذا. يختفي من الاثنين إلى السبت. بعض الزوجات أصابهن الجنون لهذا، لكن موضوع اللعنة هدأ لدى الأغلبية. أصعب شيء هو أن تجد الواحدة نفسها أمامه فجأةً، فتتجمد بفعل عينيه الخضراوين، وتصبح فعلًا شبه مُبتلَّة.

ـ كان يذهب إلى ورشة.

ـ ماذا؟

ـ كان يحب الرسم. تحدث عن ذلك الفنان الذي أُعجب به وعيَّنه مساعدًا له. وفي الوقت نفسه يُعلِّمه.

ـ أجَّل هوايته في ذلك الوقت. يتجول دائمًا بمقلمة بالية تحوي أقلام الفحم والشمع. ما يتسبب في الوقوع في حبه بشدة أيضًا هو أنه يرسمك بعد المضاجعة. وأنت تدعه يفعل ذلك. كنا ندعه يفعل أي شيء. يفرد شَعر الواحدة منا على العشب وتستلقي هناك، عارية في الشمس، وهو ينظر إليها. مثل أن تمنح الواحدة نفسها له من جديد. إذا أراد أحدهم أن يعرف شيئًا عن الفتيات اللاتي ضاجعهن ريناتو باليوكي في ذلك الوقت، فيكفيه أن ينظر إلى دفاتره، حيث مارس هوايته. تبتل الواحدة منا بين فخذيها، لكنه يغرس داخلها نوعًا آخر من الأقلام. الذي يغوص بدوره بالطريقة نفسها، بل وربما بطريقة أعمق.

بالنسبة إلى لوريانو أصبح يسير على حقل من الألغام، كل كلمة تخاطر بأن تُفجر في وجهه صورة دوناتيلَّا بلا ملابس ومبتلة بين فخذيها. وليحرر نفسه من تلك الصورة؛ قال:

ـ المايسترو، إذا تحدث عنه قال هذا.

ـ مَن؟

ـ ذلك الشيء... الرسام... صاحب الورشة، كان يسميه المايسترو.

ـ كانا عاشقين.

ـ ماذا؟

ـ إدواردو جانباتيستا فريسكي-فاليري.

ـ لا بد من التفرغ لنطق اسمه بالكامل.

ـ كانا عاشقين.

ـ هذا هو نوع الحماقات التي لا أرغب في سماعها. أسوأ من حكاية روزا التي تعود من عالم الأموات لتقتلك في نهاية حياتك.

ـ كان يقف أمامه كموديل.

ـ هذا موضوع آخر.

ـ كان يحب رسم صور المسيح العاري.

ـ صور المسيح؟

ـ العاري.

ـ التي في حقيقة الأمر كانت؟

ـ إذا ذهبت لتنظر إلى لوحات الرسام في ذلك الوقت، ستجد على النسيج صورًا عديدة لريناتو باليوكي. وجهه وجسده. بل حتى شاماته هي نفسها. سواء في البلدة أم في المدينة توجد تقريبًا لوحة منها في كل منزل.

فوجئ بوتاي بنفسه وقد اندمج في المؤامرة، واستعاد من جديد الحياة السرية لصديقه هذا في تاريخ قديم:

ـ في ذلك الوقت كان معروفًا كزير نساء وبآثار ضرب الأزواج الغيورين التي يعود بها إلى منزله. يأتي إلى البار الصغير وعينه بها كدمة وشفته مقطوعة، جوائز حسده عليها كثيرون. والآن عندما عرفت أنه أصبح مؤبدًا أيضًا في صور يسوع أشعر بالشفقة عليه. يا لها من طريقة للعمل في ورشة!

ـ كان الرسام يدفع لتلميذه الرائع بأن يُعلمه.

ـ الثري يجد دائمًا وسيلة حتى لا ينفق نقوده.

ـ الشيء الآخر هو أن معظم ضرباته لم يتلقَّها ممَّن ذاقوا الخيانة.

ـ وممَّن إذن؟

ـ أبوه.

شعر لوريانو بأنه كاد يمزق دماغه ليُخرج من ذاكرته ذلك الاسم. وقال بصعوبة:

ـ كانوا يدعونه باردو!

وشعر بالرضا عن نفسه لحصوله على هذه الذكرى البعيدة.

ـ هو تحديدًا. كومة خراء.

ـ إلا أنه معنا ـ نحن الصبية ـ كان دائمًا مرحًا، يبتاع لنا الحلوى، وأحيانًا يعطينا أيضًا السجائر.

ـ وفي المساء يعطي أشياء أخرى لابنه بظهر يده.

فكر بوتاي لحظة. أخذ يتساءل ما الذي لا يعجب ذلك الأب. له ابن جميل كتمثال منحوت، يجذب الفتيات من الصباح إلى المساء. بالنسبة إلى أي أب ـ من تلك الطبقة ـ فإن انتصارات ابنه تؤكد قوة النسل، كأنه هو مَن حصل على تلك الفتيات والزوجات.

ـ ما الذي لم يعجبه؟

ـ الرسم نفسه على سبيل المثال. إذا لم يكن الأمر يتعلق بتزيين واجهات منازل أو جدران مخازن، فهو هواية يفوح منها رائحة الشذوذ، لا أدري إذا كان كلامي واضحًا.

هز لوريانو رأسه:

ـ كان باردو أكثر تحضرًا من هذا.

ـ في أعين الناس يمثل الصديق الذي يرغب فيه الجميع. لكن بين الجدران الأربعة يضيق تمامًا على هذا الابن.

فلنبدأ بالعمل على سبيل المثال. لم يكن ممكنًا على الإطلاق إرساله إلى أكاديمية الفنون، لم تكن لديه نقود لهذا. لكن ريناتو لم يرغب في ذلك، أراد أن يسلك طريق الرسم الحر. ينزل إلى مجرى النهر ووجهه مهشم، هل تريد أن تعرف الحقيقة؟

ـ لنسمع!

ـ عندها نعشقه أكثر. أصبحنا جمعية الصليب الأحمر التي يبحث عنها. لن يكون سبابًا إذا قلت إنه أجمل وهو محطم. تلك الشفتان اللحميتان، المقطعتان بسبب الضربات تُفتحان من جديد عندما يضحك، وتسيل منهما الدماء.

ـ ومن هنا نفهم بداية داء الجرب.

ـ كان باردو سكيرًا كبيرًا. خارج المنزل صديق الجميع، بينما داخله يملي القوانين، على غرار الفاشي الكبير السكير. عندما يصل ريناتو إلى النهر وقد تهشم وجهه، تصاب بعضنا بالذعر، لأن الدقائق معدودة، وليست لدى الكل رغبة شديدة في سماع الحكايات. إلا أنني أحببتُ تلك الدقائق، أحببتُها أكثر من لحظات التعري. ليس حقيقيًّا، دعنا لا نبالغ.

في داخله شعر لوريانو بالحزن على ذلك الصديق:

ـ تستغلِلنه.

ـ كما يستغلنا هو.

ـ يبحث عن ملجأ ـ على حسب ما فهمت ـ ملجأ لروحه أكثر من رغباته.

ـ وجد هذا معي، وليس مع الأخريات.

لم يكن بوتاي يرغب في معرفة إلى أي فريق تنتمي دوناتيلَّا. قال محاولًا تسريع وتيرة الحوار:

ـ على كل حال، لم يعد يرسم. في النهاية ذهب ليقود الحافلات. تلك نفسها التي كنت أعثر عليه فيها ـ في الصباح الباكر ـ مرتديًا سترة الطيار الأنيقة.

ـ تلك إذن روزا التي تخصه.

تنهد لوريانو:

ـ فعلًا.

ـ ثم عثروا على الرسام ميتًا.

ـ كيف؟

ـ وسط اللوحات في تلك الحجرة الضخمة. وسكين مغروسة في بطنه.

ـ لم أعلم شيئًا قَطُّ عن هذا.

ـ تفجر الخبر كالقنبلة، لكن في بلدتنا الصغيرة مَن سيهتم بالفنانين! رأت ديماريا الحدث على صفحات الجريدة، وجمعتنا جميعًا حوله ـ في إحدى الأمسيات ـ نحدق إليه.

ـ لماذا؟

ـ لم نقُل هذا فورًا. كنا نخشى أن نتعمق في أمر مجنون كهذا. لكن نزعت توتشي الشكوك في عبارة واحدة: «هل تَظنُنَّ أن روزالتيا السبب؟».

ـ أرجوكِ كفى!

ـ الشيء نفسه قلته أنا. أن ننسب إليها مصائب الحظ التعس شيء، لكن هنا نحن نضغط على زر حساس.

ـ بالضبط.

شعر بوتاي بانقباض في معدته وهو يستمع إلى تلك المؤامرات. في كل الحالات، إنها تشويه لذكرى إنسانة ماتت.

ـ أنت تعرف أن دوناتيلَّا لا تخاف شيئًا. سقطت على الفور من بين شفتَي صديقتنا عبارة: «تريده كله لنفسها».

فزادت ديماريا من الجرعة: «إن الذهاب إلى الرسام يدفع ريناتو إلى ترك المنزل والاختفاء في المدينة». أما أنا ـ ومن دون حتى أن أرغب في ذلك ـ فوضعتُ الكرزة فوق قالب الحلوى، لكن بشيء من المزاح: «ربما يكون السبب أنها تتضايق من أنه يظهر عاريًا في اللوحات. إذا بدأتْ في الجنون ربما تكون قد فقدت عقلها بالكامل».

ـ كنتن في غاية الضجر.

ـ وفي الطرقات بدأنا نتبادل نظرات جادة مع الزوجات اللاتي نعرف أن لهن علاقات مع «دون جوان» البلدة. نتبادل تحية الصباح بشفاه مطبقة. وهذا معناه: «لنحترس».

ضحك لوريانو:

ـ يا للمبالغة!

ـ على كل حال بالنسبة إلى ريناتو كانت صدمة قوية. بعد التحقيقات توقف عن الذهاب إلى المدينة. قال له باردو في إحدى الأمسيات بوضوح: «انظر أين أوصلك جنون الرسم؟!»، وكان يتمشى مكتئبًا تمامًا. وبدأ أيضًا يقترب من الشرب أكثر من المعتاد، وهو

الشيء الذي طالما تجنبه، وهو يرى كيف تدمرون أنفسكم بقضاء الأمسيات في البار. أحيانًا يحاول أن يعود إلى طرقه القديمة، كأنه يحاول أن يشجع نفسه، ويقول: «لنذهب إلى الرسم». لكن آنذاك أصبحت ترفضه أقبح الفتيات.

ـ عثروا عليه؟

ـ مَن؟

ـ ذلك الذي غرس السكين؟

ـ قالوا إن السبب موضوع قروض وشيء من هذا القبيل.

ـ أراهن أنهم لم يفصحوا عن اسم أو عن وجه.

ـ بالضبط.

ـ إذن قررتن أنتن إلقاء كل شيء على روزا.

ـ لم يكن هناك تفسير آخر.

ـ أكثر شيء منطقي.

ـ لم يشكَّ فيها أحد قَطُّ.

ـ فيما عداكن أنتن.

ـ فيما عدانا.

ـ وريناتو؟

ـ بالنسبة إليه الأمر كان مختلفًا.

ـ لماذا؟

ـ بالنسبة إليه حبها مضمون. فهي واحدة ضمن أخريات يشتقن إليه، ويتعامل معها مثلما يتعامل مع الأخريات، يتركها هناك تحرقها الرغبة. كان يحب دور المعشوق. لكنها لم تعد حمقاء كالسابق: استمرت في ملاحقته، لكنها تعلمت ألا يشعر بذلك. بالنسبة إلى ريناتو كانت واحدة من تلك اللاتي سيهدأن بعد العلاقة المؤقتة. لكن لم تكن هذه حالها.

ـ كيف عرفتِ هذا؟

ـ بسيطة. كنا نتعقبها.

جحظت عينا لوريانو:

ـ روزالتيا تتبع ريناتو، وأنتن تتبعن روزالتيا؟

ـ ربما تكون هي مَن قتلت الرسام.

ـ وكانت دوناتيلّا واحدة من أولئك المجانين؟

ـ بفضل مراهم من النعناع عُولِجَ الداء في سراويلها الداخلية، لكنها ظلت الأكثر توترًا بيننا. التهمها وسواس

رغبتها في معرفة أين توجد روزا، وأصبحت تتخيلها خلفها. عندئذٍ أخذت تتعقبها. لكن هذا لم يكفِها قَطُّ، بل ترغب في الالتصاق بخيال روزا لتشعر بالاطمئنان، حتى في الحمام.

نظر بوتاي تجاه الغرفة:

ـ خبل!

ـ كانت تعيش حياتين. حياة كلها ابتسامات وحوارات لطيفة. وحياة أخرى في الظل.

ـ تقصدين روزا؟

ـ أجل هي.

ـ كانت تعمل نادلة لدى مومو.

ـ بمجرد أن تنزع المريلة تتحول إلى شيء آخر تمامًا.

ـ كانت الرؤوس تلتفت نحوها عندما تمر بين الموائد.

ـ لديها وجه خفي.

ـ بل ابتسامة تُسحر الأموات.

ـ وكنا نتناوب.

ـ تتناوبن؟

ـ بيننا مَن يدرسن مثل توتشي وديماريا. وأنا كنت في مدة تدريب في شركة نظافة فراكاسِّي، أعمل نصف الوقت.

ـ أتذكر هذا.

ـ دوناتيلَّا أكثرنا حظًّا، فقد بدأت بالفعل بمرتب كامل.

ـ لقد كبرت في محل أمها. عندما حانت اللحظة عينوها هناك. ثم كانت تحب عملها مصففة شَعر. أحيانًا تُخرج مكواة العمل وحتى اليوم تذهب إلى منازل العميلات اللاتي يثقن بها هي فقط. تكون أيامًا جميلة، في المساء تجلس إلى المائدة وهي راضية عن نفسها.

ـ يشعر المرء بالحرية عندما يعمل مع عائلته.

ـ وتضيعها جريًا وراء تلك المسكينة؟

ـ على المدى البعيد، تبخر الأمر بالنسبة إلينا نحن الأخريات. وسرعان ما نسينا مؤامرات الأوقات الأولى، ففي ذلك العمر يحدث كل شيء بسرعة شديدة. بالنسبة إليَّ على سبيل المثال، بدأ يحلو في عينَي ذلك الفتى رائع الجمال الذي يأتي من الريف إلى الميدان يوم الأحد.

ـ أنتيو المسكين؟!

ـ وتدريجيًّا توقفنا عن إضاعة الوقت، سواء بروزالتيا أم لا،

واختفى موضوع الرسام. كنا نشعر وقتها بأننا بطلات مغامرة غامضة فحسب.

ـ أحسنتِ قولًا.

ـ إلا أن دوناتيلًا لم تستطِع أن تستعيد رشدها. كانت تصل إلى استنتاجات خاصة. ونظرًا إلى أنها ترغب في أن تقضي الساعات في عمليات التعقب، تركناها تفعل ذلك. كنا نستمع إليها، تمامًا كما نفعل مع المسلسلات الروائية في الراديو. ثم اكتشفنا أمرًا ما.

ـ ماذا؟

ـ كان لروزا عشيق.

ـ يا للهول!

ـ يتقابلان أيام الأربعاء ليلًا. في الأسفل عند ملاعب الكرة، على بعد خطوتين تقريبًا من المطعم. تنتهي من نوبة عملها، وبدلًا من الذهاب إلى المنزل تتخذ الطريق العكسي. تخيل: أيام الأربعاء في موسم الركود الذي فيه تُعد معجزة إذا قدم مومو الطعام لثلاث طاولات. تقريبًا مثل هذه الأيام.

ـ دليل جديد إذن.

ـ دليل على ماذا؟

ـ على أن لديها علاقات أخرى. إنها استخدمت من ذلك الفتى الذي حلمت به قفازًا، وإنها كانت مثيرة للشفقة، ثم استعادت رشدها. فقد تركت مساحة لآخر. وإن كل تلك اللعنات وشكوككن لم يكن لها أي أساس.

ـ نتحدث عن باردو.

ـ مَن؟

ـ عشيق روزا.

اضطر لوريانو إلى أن يستند إلى قطعة الأثاث:

ـ ماذا تقولين؟

ـ هو بنفسه.

ـ نيفيس، تلك أمور يمكن...

ـ نظرًا إلى أنها لم تستطِع الحصول على الابن، حصلت على الأب في الخفاء. ربما لتحصل على الجينات نفسها، شيء ما من ريناتو يصل إليها في كل الأحوال.

ـ لا أصدق هذا!

ـ لم أخترع هذا.

ـ لا بد أنكن لم ترين جيدًا.

ـ ما رأيناه رأيناه فعلًا.

ـ ليست اتهامات مسلية.

ـ الوحش الحقيقي هو باردو. في ذلك الوقت كان في الخمسين تقريبًا. لا بد أنه لم يصدق نفسه أنه يستطيع أن يضع يديه على فتاة صغيرة في الثامنة عشرة بالكاد.

ـ حسبما أعرف هو الآن في دار للمسنين.

ـ ربما يبلغ عمره الآن مائة عام. كانا يتقابلان في الملاعب، ويفعلان ما يجب فعله. عندما يبدآن نرحل شاعراتٍ بالرعب. في ذلك الوقت كنا نرى باردو عجوزًا هرمًا.

ـ يا لها من قصة.

ـ كانت لدى روزالتيا ميول من هذا النوع.

ـ واستمرت في ملاحقتها لباليوكي؟

ـ لم تفكر في شيء آخر في أي وقت فراغ لديها.

ـ إلا أنني لا أتذكر هذا. كان ريناتو واحدًا منا، يقابلنا كثيرًا في سهرات المدينة، وبخاصة عندما بدأنا نحصل على رخص قيادة. ينضم إلينا بكل سرور، حتى وإن عوج الأغلبية أنوفهم عند رؤيته في الشلة، فهو أصغر منا ببضعة

أعوام. ولم يكن هذا هو السبب: بمجرد أن يدخل إلى صالة الرقص يجذب أعين كل النساء، تتبعها أعين كل الخطاب والأصدقاء الغيورين. وتتفجر الشجارات من اللاشيء، لكن في النهاية اعتبرناها جزءًا من التسلية. لكن الحق يُقال، لم ينسحب من أي شجار قَطُّ. أحيانًا ينزل ليشرب معي «الجرابَّا»، ونتحدث عن تلك الأيام.

ـ وماذا تقول دوناتيلَّا؟!

ـ عادةً ما تكون منزوية في الصالون أمام التلفزيون.

ـ تشعر بالخجل؟!

ـ لا أعتقد. فقط لا تهمها حكايات بعض التفاهات التي ارتكبناها في شبابنا. تُفضل الأفلام التلفزيونية.

ـ كانت الأكثر اندماجًا.

ـ في ماذا؟

ـ في الأشياء الغامضة ومؤامرات من ذلك القبيل.

ـ منذ أن عرفتها لم تقُل لي كلمة واحدة عن كل هذا. هل يبدو هذا لك طبيعيًّا؟!

ـ تشعر بالخجل.

ـ وأنتِ؟ هل حكيتِ كل شيء لأنتيو المسكين؟

ـ طبعًا لا!

ـ أبدًا؟ ولا حتى عن اللعنة؟

ـ طبعًا لا!

ـ إلا أنكِ في الوقت نفسه تثرثرين معي في أمور زوجتي. حتى الآن لا أفهم هل ترغبين في الوقيعة بيننا أم هناك شيء آخر؟!

ـ لقد تطرقنا إلى الموضوع، وكلمة جرت كلمة، هذا كل ما حدث. أنا لا أتمنى لكما سوى الخير، صدقني!

ـ ربما! كنتِ تقولين عن تلك الفتاة المندمجة في الموضوع.

استغرقت نيفيس بعض الوقت حتى تعود إلى خيط الحكاية:

ـ عند اكتشاف تلك المواعيد السرية في الملاعب، فكرت دوناتيلّا مليًّا في الأمر وفي النهاية وصلت إلى حكمها، وأطلقته أمامنا بوضوح وقسوة.

ـ لنسمع!

ـ إن باردو هو مَن طعن الرسام.

ـ عبقرية.

ـ قالت ربما اكتشف الأب قصة الحب تلك مع الرسام.

ـ لكنه شيء يحتاج إلى دليل.

ـ ما أدراني: ربما عثر على ملحوظة ما، سطرين مكتوبين على قطعة ورق. الشيء المؤكد هو أنه يمكنك أن تقول أي شيء عن باردو، فيما عدا قبوله لفكرة ابن شاذ. ونزع الأحشاء أقل شيء يمكن أن يفعله.

فكر لوريانو في الأمر. في النهاية لا بد أن يمنح الحق للصديقة. باليوكي العجوز من نوع الرجال الذي يمكنه الاقتصاص بالدم، من جريمة كهذه، ارتكبها شخص من دمه. ودود إلى أقصى حد لكنه يستشيط غضبًا لأدنى سبب. شخص ينتمي إلى زمن ماضٍ. أحد الأشياء التي لا يمكنه نسيانها الطريقة التي اعتاد والد ريناتو التصرف بها إزاء كلاب الصيد الأقل ذكاءً. يبدو له أنه يسمع الصوت المرتفع الخشن لباردو في أي يوم كان، وهو جالس على مقاعد البار، ويقول: لن أضيع عليه ولو طلقة واحدة. عندئذٍ يأخذ الحيوانات المعيوبة إلى البقاع المهجورة، يدعوها لنفسه وبسكوتة في يده. يجعلها تشتمُّها وهي مسرورة تهز ذيلها، وباليد الأخرى تصل ضربة النصل إلى عنقها. ثم يأكل هو البسكوتة. ارتعد لوريانو من تلك الذكرى، وقال:

ـ تلك اتهامات خطيرة.

ـ لا بد أنه أغلق فم روزا بالطريقة نفسها.

ـ هذا أيضًا! وهنا دخلنا إلى الخيال العلمي.

ـ فكِّر في الأمر. ربما هي أيضًا عرفت قصة الحب بين ريناتو والفنان. ربما هددت الشاب الوسيم. يكفي أيضًا هذا السبب: يستخدمها باردو بعض المرات لمتعته، ثم يقرر أن ينهي العلاقة. الموضوع خطير، حيث يمكن أن تتفجر فضيحة في أي دقيقة وتحطم أكثر من عائلة!

ـ روزالتيا ألقت نفسها من أعلى برج الجرس أمام الجميع.

ـ غير صحيح.

ـ يا إلهي! كنتُ هناك!

ـ أنتَ سمعتَ السقطة.

ـ وماذا يجب أن أعرف أكثر من ذلك؟

ـ كيف دخلت الكنيسة؟ لماذا لم يرَها أحدهم؟ قبلًا ذكرتَ لي أمرًا غاية في الأهمية أخافني، لكن أيضًا أضاء نورًا في ذهني.

ـ ماذا قلتُ؟

ـ كانت بملابس النوم.

ـ إنها الحقيقة، كنت هناك، ورأيتُها.

ـ بلا حذاءٍ حتى.

ـ بالضبط.

ـ فتاة تعبر نصف البلدة، من منزلها إلى الكنيسة، مسافة تحتاج إلى خمس دقائق على الأقل، مرتدية ملابس النوم وحافية. ولم يقُل لها أحد أي شيء؟

ـ امممممم.

ـ لقد قلتَ أيضًا شيئًا آخر.

ـ ماذا؟

ـ طاولات السوق.

ـ ثم؟

ـ كانت توجد بسطات السوق.

ـ أجل أنا متأكد.

ـ إذن كان يوم السوق.

ـ إذا كانت الطاولات هناك، فهو كذلك.

ـ إذن كان يوم الخميس.

ـ تحديدًا.

ـ فيمَ يجعلك هذا تفكر؟

ـ فيمَ يجعلني أفكر؟

ـ إنه اليوم التالي.

ـ نيفيس، تكادين تتسببين في جنوني.

ـ متى كانت تحدث اللقاءات في الملاعب؟

ـ يوم الأربعاء في وقت متأخر من الليل.

ـ ومتى حدث السقوط من برج الجرس؟

لم يستطِع لوريانو إلا أن يجيبها:

ـ الخميس صباحًا.

ـ أي بعدها بساعات قليلة. هل هذه مصادفة؟

ـ بالتأكيد.

ـ هناك شيء آخر أيضًا.

ـ تبدين مثل المفتش كولومبو.

ـ لم تصرخ قَطُّ. قلتَ هذا.

وظهرت أمام بوتاي على الفور صورته جالسًا إلى إحدى الطاولات في الخارج، منهمكًا في بعض الثرثرة مع تانكريدي المسكين؛ ذلك الصديق العجوز الذي استطاع

دائمًا أن ينتزع منه بعض الضحكات بكل سهولة. ثم السقطة المكتومة.

ـ يمكنني أن أقسم بذلك أمام القاضي. ولا حتى نفَس.

ـ هذا ليس طبيعيًّا. واحدة تلقي نفسها في الفضاء ستصرخ غريزيًّا.

ـ يمكن أن يقودك الخوف إلى ابتلاع أنفاسك. إلا أنه ليس أمرًا بسيطًا في حد ذاته!

ـ فكِّر في الأمر: هل نحن متأكدان فعلًا أن روزا انتقلت إلى العالم الآخر عندما اصطدمت بالأرض الحجرية؟ ألا يمكن أن تكون نامت قبلها؟ في كل الأحوال كانت فتاة هزيلة.

ـ أجل، لكن ليس إلى درجة أن يضعها أحدهم في جيبه.

ـ لكن الحقيقة أن موضوع ملابس النوم أثار شكوكي.

شعر بوتاي ببعض الحماقة، إلا أنه في النهاية وضع الفكرة في الحسبان:

ـ أن يأخذها من الفراش بعد ضربة على الرأس ويحملها إلى البرج تبدو لي فكرة أكثر تعقيدًا من فتاة تعبر مسرعة في حارات غير مزدحمة لأنها أكثر انحدارًا وكثيرة الدرجات. تتسلل إلى الكنيسة، بينما انشغل الجميع

في شراء الباذنجان. تصل إلى برج الجرس، تقتل نفسها، وينتهي الأمر.

ـ أي الحارات تقصد؟

ـ كيف لي أن أعرف؟ تلك الخلفية التي تتسبب في كسر أحواض المسنين. في نهاية الأمر لا أحد يسير فيها، القطط فقط. فكرة خطرت ببالي. توقفي عن التدقيق في كل كلمة أقولها.

ـ إلا أنها فكرة منطقية.

ـ للأسف ليست إلا ثرثرة بين اثنين جافاهما النوم.

ـ إلا أنها فكرة منطقية.

ـ إذن تتفقين معي.

ـ أبدًا. يحملها باردو، ويعبر الحارات المهجورة ويلقي بها إلى أسفل.

انفصل لوريانو عن تلك القصص بتنهيدة:

ـ نيفيس، أشعر فعلًا بالتعب!

تحوَّل مخه إلى عجينة، حتمًا سيحتاج إلى بضعة أيام لينظم فيها كل تلك المعطيات. وخصوصًا تلك التي تخص زوجته.

ـ هل أنت مصنوع من حجر؟ لا تتأثر بأي شيء.

هز كتفيه:

ـ وماذا يجب علينا أن نفعل؟ نطرق باب قسم الشرطة ونحكي لهم كل هذا الهراء؟ لأي غرض؟! حتى يسجنوا باردو الذي لم يعد حتى يتذكر ماذا تناول في وجبة الإفطار؟ سينتهي الأمر بأن يحملونا نحن بسيارات الإسعاف.

ـ إنها تطلب منا هذا.

ـ مَن؟

ـ روزالتيا تصرخ من لعنتها لتُظهر الحقيقة، لترقد في سلام أخيرًا.

ـ نيفيس، تأثير الوحدة سيئ جدًّا عليكِ.

ـ لم أكن قَطُّ بتلك اليقظة.

ألقى لوريانو نظرة على الساعة:

ـ ولا أنا.

ـ انظر إلى ما اضطررنا إلى الخوض فيه لنصل إلى هنا: موت أنتيو، وفكرة العثور على حيوان صغير ليؤنس وحدتي.

وبدت هذه فرصة أمام بوتاي ليخرج من الحوار:

ـ فعلًا... الدجاجة! ألا تزال نائمة؟

ألقت نيفيس نظرة نحو الصالون:

ـ أيتها العذراء! شيء مرعب.

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا تزال ثابتة تمامًا على المقعد. ربما تكون مسكونة. جمدتها روزالتيا لتدفعني نحو الهاتف، و...

ـ هل سمعتِ من قبل عن شبح سكن دجاجة؟ لا تتحدثي عن هذا.

ـ إنها مخلوقات نظيفة. دخول جسد شخص أعقد من هذا.

ـ والآن أصبحتِ ساحرة أيضًا.

ـ كانت لاندا جدتي تقرأ الطالع. يُحضر الفلاحون إليها نصف كتف خنزير مقابل أن تقرأ لهم حال الأرض عن طريق رقاص الساعة. تلك أشياء أعرفها جيدًا.

ـ أرواح تسكن الدجاج!

ـ ويحدث هذا أيضًا للقطط.

ـ ماذا عن الديوك؟

ـ لا تكن أحمق! في إحدى المرات أحضروا صبية جميلة مثل القمر. استيقظت لتجد حنَشًا أسفل وسادتها، ومنذ تلك اللحظة بدأت تفقد شَعرها. أتذكرها كأنها أمامي الآن. كان اسمها زايرا.

ـ الفزع الشديد يمكنه أن يتسبب في أكثر من هذا.

ـ بل كانت عيناً شريرة. أعدت لاندا جدتي إحدى تركيباتها السحرية، ثم أعطت الصبية عنق إوزة.

ـ عنق إوزة؟

ـ لتضعه بين زنبركَي السرير ومرتبته.

ـ ارحميني!

ـ لا بد أن يظل هناك من قمر جديد إلى آخر.

ـ تُرى كيف كانت رائحة العفونة!

ـ في الواقع، لم تعد زايرا تفقد شَعرها في خصلات، أيها الجبان العزيز، تلك الأشياء موجودة.

شعر لوريانو بشيء من الحنان غير المتوقع. فهي المرة الأولى التي تكشف فيها صديقته القديمة تلك عن نفسها، وعن أنها غارقة في الجهل الشعبي. في النهاية لن يكلفه شيء تركها لتصدق في قراءة الطالع والتركيبات السحرية،

والموتى الذين يتحدثون عن طريق دجاجة والحصى السحري. فكل واحد يختار الوحدة التي يريدها، إضافة إلى أن إعطاء تفسير للمجانين جنونٌ في حد ذاته: «نيفيس العزيزة، لتعتبري تلك الكلمات بمنزلة حضن». محاولة قول شيء من هذا القبيل صعبة للغاية. وبدلًا من ذلك نقل بوتاي النقاش إلى منطقة أخرى.

ـ نفخة؟

ـ ماذا؟

ـ امسكي الدجاجة، وانفخي في عنقها.

ـ بأي معنى؟!

ـ رأيت ذلك في أحد العروض السحرية، وقتها كانت حمامة. ينومها الساحر مغناطيسيًّا، ثم ينفخ في عنقها ليوقظها.

فكرت نيفيس في الأمر:

ـ لا، الفكرة في حد ذاتها تخيفني.

ـ إلا أنكِ كنتِ تطعمينها في فكها كما تفعلين مع طفل! وحسبما تقولين لن أستبعد أنكِ في المساء تنظفين لها مؤخرتها. ماذا تعني نفخة إذن؟

ـ ربما تخاف، ولا تعرفني وتعقرني في أنفي.

رفع لوريانو عينيه نحو السقف:

ـ تضعين افتراضات كثيرة لكل شيء، كيف تعيشين بهذه الطريقة؟

أجابته هي للمرة الثانية:

ـ فكِّر فيما يخصك، أنا أعرف كيف أتعامل مع ما يخصني. صدقني.

هز بوتاي رأسه. يمكنه بكل سرور أن يفتح النقاش حول قناعات الريفيين المقتنعين بأنهم تعلموا كل شيء من دون أن يعرفوا أي شيء فيما وراء اللافتة التي تشير إلى نهاية الضاحية. لديه معركة من هذا النوع كل يوم، مع أشخاص يصنعون من معتقد لا يساوي أي شيء مبدأً صلبًا. ربما لهذا السبب يحتاج إلى لترَي كحول يوميًّا، لتر مع كل وجبة. قرر أنه لا قوى لديه حتى يضع نفسه في مواجهة بهذا الغباء في ليل مرَّ أغلبه. قال:

ـ مجفِّف الشَّعر. جربي بهذا.

ـ مجفف الشَّعر؟!

ـ استخدميه.

ـ وماذا إذا جففت عينيها؟! يكفي أنها تسير كالمخبولة.

فكر لوريانو: «فلتقتليها إذن»، وقد تعب من ذلك العرض المسرحي، «ثم اقتلي نفسكِ». ضرب لسانه على حلقه بطريقة مشابهة:

ـ إذن لا أعرف ماذا أفعل لكِ.

ـ مثقف كبير.

ـ الكتب لا تعلمكِ بالتأكيد كيف توقظين دجاجة مُنومة. العلم لديه أولويات أخرى.

ـ وبعض الأطباء كما يبدو. وبخاصة عندما تضع أمامهم زجاجة نبيذ.

في أعماقه، تخلى بوتاي عن تلك المباراة؛ فأحد أهدافه ـ حتى تلك اللحظة ـ كان مساعدة الصديقة على إيقاظ الدجاجة ليثبت لها أنه لا وجود للأشباح، إلا أنه استسلم الآن. ثم حان الوقت لتتوقف عن ذكر موضوع الشرب هذا. لديه نقطة ضعف، ويجد راحته في هذا، ولم تعد تروقه فكرة أن تُسمم كؤوسه المستقبلية بكلمات أرملة عجوز خرِفة. أجاب بجفاء:

ـ نيفيس، الوقت متأخر الآن بالفعل.

ـ كنت تقول ذلك أيضًا آنذاك.

ـ ماذا؟

ـ لقد فهمت.

شعر لوريانو فجأةً أن أحدهم ضربه على ظهره بغدر.

ـ الآن عمَّ تتحدثين؟

ـ أنت تعلم.

نظر بحذر نحو الغرفة، كأن تلك الكلمات الأخيرة قد قيلت في مكبر صوت:

ـ وماذا يمكنني أن أعلم؟

ـ بالإضافة إلى أنك سكير، هل أُصبت أيضًا بالخرف؟

ـ نيفيس!

ـ اهدأ؛ مجرد مزحة.

ـ وأنا سأموت من الضحك.

ـ ولمَ لا؟! نحن مُسنَّان، والثرثرة عن الأيام الخوالي شيء يمكننا الاستمتاع به. ثم إن المكالمة على حسابي. توقف عن التنفس كأن أحدهم ينتزع رئتيك.

شعر لوريانو فورًا بأنه مثبت في الجدار: ها هي تلك

المجنونة قد خرجت عن مسارها وستبدأ في الحكي عن أشياء مرت عليها مائة حياة. دقَّ قلبه بطريقة غريبة. وقبل أن يتحدث وضع يدًا على السماعة ليحميها:

ـ في رأيكِ، ماذا يجب أن أقول؟

ـ على سبيل المثال أنك كنت شخصًا وسيمًا. وإذا أغلقت عينَي يبدو لي أنني أراك مرة أخرى هنا، مثل تلك الأيام.

ـ كنت أعرف ذلك. لا بد أن أغلق الخط حالًا. كل تلك القصص عن روزالتيا وباليوكي ودوناتيلًا زوجتي. موضوع الدجاجة ليس إلا كذبة. أليس كذلك؟

ـ أوه، أنت تمنح نفسك أهمية كبيرة! لم تتغير على الإطلاق.

ـ إذن عمَّ تبحثين بالتحديد؟ اسمعي، ليفعل كلٌّ منا معروفًا في الآخر: سننهي المكالمة ونظل صديقين كما كنا.

ـ لكي أصبح صديقتك لا بد أن أعيد نفسي من جديد إلى العالم. ربما أُولد وسط الصينيين. لكن كل الجدران تعرف ذلك: «إلى أي بلدٍ تذهبين، أمثال بوتاي ستجدين».

ـ أنتِ لا تصنعين معروفًا جيدًا بهذه الطريقة.

تحب نيفيس تلك النبرة المتوترة. شعرت بأنها تمسك بقبضتها لوريانو بوتاي المتعالي مثل قطعة جبن.

ـ في الحقيقة الهدية البشعة غلفتها أنت بيديك في وقت مناسب، من دون حتى أن تضع بطاقة عليها.

ـ هل هناك معنى للتحدث عن هذا الآن؟

ـ هل هناك معنى لعدم التحدث عن هذا أبدًا؟

شعر بوتاي بضيق خفيف في صدره:

ـ الماضي مليء بالأشباح للجميع، هكذا هو الآن، وسيظل دائمًا على هذه الحال. التحدث الآن عما حدث منذ ثلاثين عامًا لن يفيد في شيء.

ـ انظر إلى روزالتيا.

ـ هي مرة أخرى.

ـ فيما يخص الأرواح التي لا تجد سلامًا.

ـ نحن أحياء وبصحة جيدة.

ـ تحدَّث عن نفسك. قُتلت نيفيس بالفعل عام ١٩٨٢. وذلك حدث بعد شيء آخر. ليس أمرًا هينًا أن تعيش بشبح ذلك الذي كان يمكنك أن تعيشه. أن تنظر إلى المرآة وقبل أن تصبِّح على نفسك تجده أمامك.

ـ يا للمبالغة! ثم كيف يمكن لبعض الثرثرة أن تغير أي شيء؟

ـ على الأقل أنت تتحدث معي. نظرًا إلى أن الشجاعة تنقصك لتفعل أي شيء آخر.

ـ تتحدثين كأنني فعلت ذلك متعمدًا أذيتك.

ـ أتحدث لما أشعر به من ألم.

ـ وبسبب أنتيو. موت بهذه الطريقة يمكن أن يقلب حال أي شخص.

ـ لا تجرؤ أيضًا على ذكر اسمه، وبخاصة في هذا الحوار.

ـ أنتِ تهاجمينني بلا داعٍ. كان صديقًا، وهو صديق حتى الآن، حتى لو...

ـ لم يكن هذا رأيك عندما كنت تضاجعني خلف الأحراش.

انتفض لوريانو، على الرغم من عدم تغير التنفس العميق لدوناتيلَّا. قذف بالكلمات ضغطًا في السماعة:

ـ نيفيس، هل جُننتِ؟

ـ كنت مجنونة، بالتأكيد.

حاول أن يتحكم في أعصابه:

ـ الآن فهمتُ ما ترغبين في عمله.

ـ بوتاي يفهم شيئًا لأول مرة! لا بد من أن ندوِّن هذا في التقويم.

تحدث لوريانو كأنه يدب طرف لسانه في السم:

ـ لقد أصبحتِ وحيدة. وبرؤيتكِ نفسكِ مهملة، لا تحتملين أن يسير الأمر على نحو مختلف للآخرين. لا تحلمين سوى بهذا: بأن يتحطم العالم كله. تمدين ذراعيكِ للماضي حتى إبطيكِ بمتعة مَن يحرك مياهًا راكدة. تؤرقين حتى روزالتيا، الصبية المسكينة. وتضعين الفلفل على دوناتيلَّا التي آنذاك لم تكن سوى طفلة تبقع فمها بالحليب المتساقط.

ـ أكثر من مجرد حليب، ما كان باليوكي يوزعه هو تنويعات على حساء «السْتراتيشيلَّا» الشهي.

لم يسقط بوتاي في فخ الاستفزاز:

ـ كل هذا الإعصار الذي يصل أمسية ما، بعذر دجاجة مُنومة. لماذا؟ ما الغرض؟ الإجابة شيء يثير الشفقة.

ـ أشعر بالفضول.

تباطأ لوريانو بعض الشيء. كان يشعر بالأمر، فقد فتح

الباب على قفزة لا تسمح بالمخاطرة، لا بد أن تؤدي غرضها. توقف ثوانيَ، ثم قال بهدوء:

ـ نيفيس، لا معنى لأن تأتي الآن لتدمري زواجي. لن تربحي شيئًا.

ساد الصمت مرة أخرى. حتى انطلقت ضحكة عالية مجلجلة. سحق بوتاي السماعة في صدره. شعر بشيء من الدغدغة حيث وضعها، على ارتفاع قلبه بالتحديد. استمر الأمر تقريبًا نصف دقيقة. عندما بدا له أنها أُنهكت، أعاد وضع السماعة على أذنه:

ـ هل انتهيتِ؟

ـ أحمق.

ـ هذا ما أراه. وأنتِ تعرفين أنني لا أخطئ.

فُوجئت نيفيس بالإهانة التي شعرت بها. فجأةً شعرت بأنها موضوعة في أسمال مسكينة تحاول الحصول على الفتات. وقبل أن تُدرك ما حدث، سمعت نفسها تقول:

ـ لست بحاجة لأن أزعجَ الشاحنة التي ترقد على سريرك.

إلا أنها شعرت ببعض الندم فورًا، لأنها بنطقها تلك الكلمات بدا أنها تؤكد نظريته. لكنها شعرت أيضًا ببعض السرور.

تماسك بوتاي كرجل:

ـ إذا كان هذا كل شيء، أرى أن نكتفي بهذا. شكرًا على المكالمة.

ـ أحيانًا أنظر إلى صور معينة.

ـ أي صور؟

ـ توجد صورة كنا فيها جميعًا معًا، في احتفال الخريف: أنا وأنت ودوناتيلَّا. وقتها فاز أنتيو بدراجة سباق في مسابقة الصيد الخيري. أرتدي أنا ثوبًا أبيض جميلًا، فيه زهور حمراء وزرقاء. لكن الصورة وقتها كانت بلا ألوان.

ـ أتذكر ذلك الثوب.

ـ نجلس إلى مائدة ضخمة، وبإحصاء كل الرؤوس كنا قرابة اثنين وعشرين شخصًا.

ـ يا لها من أمسيات!

ـ أنت تنظر إليَّ.

ـ ...

ـ وأنا أنظر إليك.

ـ ...

ـ لم يكن يهمنا وقتها أي شيء، فقد اتخذنا قرارنا حتى ولو انفجرت السماء.

ـ نيفيس، هذا ليس حسنًا لي.

ـ الحقيبة مُعدة في الحجرة فعلًا. وضعتها تحت الفراش حيث أنام حاليًّا. وضعت داخلها أشياء قليلة. آه، كانت أسابيع شديدة القسوة. مساءً في الحمام نزعت خاتم الزواج، ووضعته على الحوض. نظرت إلى تلك اليد العارية. أشعر بالدوار بعض الشيء: «هل سأتمكن من ذلك فعلًا؟»، لكن كانت الإجابة موجودة ولم يكن هناك مجال لاحتمالات أخرى: «لا بد من أن أفعل هذا فحسب». بعد الاحتفال في معرض الخريف وصلنا إلى المنزل بمعجزة. قاد أنتيو السيارة المسافة كلها بعين واحدة مفتوحة بسبب كل النبيذ والمسكرات. سيكون أمرًا حزينًا اصطدامنا بمنحنى ما. (ربما يجب ألا أقول هذا، لكن في ألف مناسبة وجدت نفسي تقريبًا أندم على هذا: «ربما كان من الأفضل أن أموت ذلك المساء!». ها أنا قد قلتها: أنا القديمة ماتت، انتقلت بالفعل إلى العالم الآخر في الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٨٢). نزعت عن زوجي ملابسه، ووضعته في الفراش. سقط في نوم عميق بعد دقيقة واحدة. نظرت إليه مدة طويلة،

كأنني أنتظر صوتًا إلهيًّا يأمرني أن أتراجع، وأن ينزع من رأسي ذلك الجنون. لم يأتِ الصوت. عندئذٍ خلعتُ خاتم الزواج للمرة الأخيرة، ووضعته على الكومودينو. أُخرجُ الحقيبة، وبينما أغلقُ الباب خلفي كانت المعركة أسوأ. شيء غريب أن تجتاز عتبة منزلك وأنت تعرف أنك لن تعود إليه أبدًا. تركت المفاتيح في القفل. وبينما أسير في الطريق المتسع لم ألتفت ولو مرة واحدة إلى الخلف. حتى وصلت إلى الشارع الأسفلتي. كان منتصف الليل، وفي السماء ظهر القمر الجديد، وتشبثت به بكل قوتي. من حين إلى آخر تلطمني رياح جميلة، تطير خصلاتي الأمامية، وفي كل مرة يبدو لي أنني أسمع أصوات محرك مُسرع، عندئذٍ أقول لنفسي: ها هو! ها هو! سنفعلها فعلًا... أنظر إلى منحنى الطريق. كدت أفقد عقلي حتى بدا لي أنني أرى مصباحَي السيارة مشتعِلَين. لكن لم تحضر أي سيارة. عندما عدت إلى المنزل كنت شاحبة كقطعة الرخام، لأسباب عدة. أعدت المفاتيح إلى مكانها، والحقيبة تحت الفراش. لم يتحرك أنتيو من مكانه سنتيمترًا واحدًا. وصلت إلى الكومودينو وارتديت الخاتم من جديد. وفي أثناء وضعه في إصبعي بدا لي أنني أسمع صخبًا معدنيًّا، شبيهًا بصوت الأغلال. ذهبت إلى الحمام، ونزعت ما تبقى من المساحيق. نزعت ملابسي

وارتديت قميص النوم المعتاد. عندما تسللت إلى أسفل الأغطية كانت المرة الأولى التي شعرت بالحداد على نفسي. حداد لم يفارقني قَطُّ.

كلمات كثيرة ذات ثقل شديد. لوريانو يقف هناك، أمام المنضدة، بنظرة غائبة، مثل شخص أصابه أحدهم بفأس على ظهره فجأةً.

ونيفيس أيضًا ليست في أحسن أحوالها. أضافت:

ـ ذلك المساء تركتَني في ربوة كوربِلُّو. وهأنذا بعد ثلاثين عامًا لا أزال في مكاني، محنطة مثل الدجاجة الجالسة في الصالون. يجب أن تعرف كيف توقظها، لكنك كالمعتاد: لا فائدة منك.

اجتهد بوتاي بشدة حتى يكسر القناع الحديدي الذي شعر به يكبله. أن ينطق كلمة، عادةً في أي ظرف آخر ترن كأنها مليئة بالنور، لكنها سقطت من فمه كالجبال:

ـ كان أماديو موجودًا.

كان زرًّا مؤلمًا، وشعرت نيفيس بحريق في داخلها.

ـ لا يمكنك معرفة هذا.

ثم أدركت هي أيضًا أن العبارة بشعة، بعد أن تفوهت بها.

نظر لوريانو إلى الغرفة:

ـ تأخرت دورة دوناتيلَّا.

رأت نيفيس من جديد في لحظة الشهور، ثم السنوات التي عبرت عليها بعد تلك الليلة في أكتوبر: انتهى كل شيء بينها وبين لوريانو، لم تكن هناك حتى الحاجة إلى التحدث عنه. حدث هذا مثل تعويذة شريرة، تحولا من عاشقين أبديين بينهما وعود كثيرة إلى معارف، كما كانا دائمًا في أعين الجميع. وقررت أن تنتقم هكذا:

ـ بعدها ببضعة أيام حدث هذا لي أنا أيضًا.

ـ ماذا؟

ـ التأخير.

تنفَّس بوتاي الصعداء، وتخيل نفسه وقد استعاد التحكم في الأمر، حتى تغيرت نبرته:

ـ أحيانًا تجيبنا الحياة بهذه الطريقة، بأمور شديدة الوضوح. فليظل عام ٨٢ على ما هو عليه، من دون أن يحطم عائلتين وحياة ابنين.

ـ أردت أن تتزوجني.

واجتهدت نيفيس حتى لا تقول: «كان يجب».

ـ وتمنيت الذهاب إلى أمريكا. حتى هذا تركته على قارعة الطريق، في التقاطع معي.

كانت هذه هي الورقة المُرة بالنسبة إلى لوريانو. نزع عينيه عن النقطة الثابتة التي أخذ يحدق إليها، كأنه يهرب من عينيها:

ـ كان علينا حساب الحماقات التي ننطق بها.

ـ حماقات.

ـ نقول منها كثيرًا، وبخاصة في سن معينة.

ـ بهذا الصدد كنت ملكًا.

ـ وكنت أصدق ما أقوله بالفعل. لم أقُل قَطُّ أي شيء لأؤذيكِ.

ـ إلا أنك فعلت ذلك.

ـ فعلتُه بنفسي أولًا.

ـ وبي ثانيًا.

ـ لكن...

ـ ولاورا ثالثًا.

اضطر بوتاي إلى أن يؤدي تدريبًا مهمًّا ليربط ذلك الاسم بوجه ما.

ـ لاورا؟

ـ حتى أنت لم تدرك هذا؟

ـ عن لاورا؟

ـ إنها تحمل حرف اسمك الأول. حتى الاسم نفسه ليس بعيدًا تمام البعد.

بدا شخير دوناتيلّا منشارًا آليًّا. أمام منضدة الهاتف هناك مَن يحلم بعين مفتوحة: أن يُقسم إلى نصفين لكيلا يعرف أي شيء عن أي شيء.

إلا أن نيفيس جُن جنونها فعلًا، وعلى ضوء تلك العبارات المتبادلة الأخيرة لم يكن عليها إلا استخدامها كبلطة حرب لتهشم بعض الأمور، وتسيل الدماء الغزيرة.

ـ لقد صرخت باسمينا طوال حياتي بهذه الطريقة: باسم ابنتي.

كاد لوريانو يُصاب بالجنون أسفل عاصفة الصواعق التي أعادت صوره في آلاف الأحداث: وهو في البار بينما نيفيس تتمشى بعربة الطفلة، وتحية الصباح التي تخرج منها بصعوبة. وهو على باب المدرسة الابتدائية، في المرات النادرة التي سمح له فيها عمله بالذهاب ليأخذ أماديو من أمام باب الخروج، ونيفيس تفعل الشيء نفسه

مع ابنتها وتتجنب النظر إليه. وهو أمام أكواب الشراب (الكثيرة، الكثيرة جدًّا، التي لا حدود لها) حيث في لحظات معينة من السُّكر يسقط في الدوامة المعتادة التي يرى فيها امرأة شابة جميلة، في الليل، متروكة هناك على قارعة الطريق مثل العاهرات في طريق كولاكيه. رأى نفسه في مزرعة ربوة كوربِلُّو، مع صديقه أنتيو، في زيارة عاجلة للأرانب، وقبل كل شيء في محاولة استبعاد وباء الثعلبة. ثم معه في المطبخ لشرب «الجرابّا»، والفتاة الصغيرة تسحرها أفلام الرسوم المتحركة. تتحرك نيفيس في المكان، كأنهما في محاولة لاستعادة الصداقة من جديد. كل هذا وأكثر تحوَّل في هذه اللحظة إلى كلمة واحدة:

ـ ابنتي؟

ـ تربت جيدًا على كل حال. درست والآن تعيش في فرنسا. منحتنا حفيدين لا أستطيع نطق اسميهما.

جفَّ حلق بوتاي. واشتدت رغبته في أن يذهب إلى الغرفة الأخرى ليمسك بعنق الزجاجة الكبيرة، لكن في لحظة واحدة تركت تلك المتاهة مكانها صرخة واحدة غاضبة:

ـ وتخبرينني بهذه الطريقة؟

ـ لا أعرف كيف أقول هذا بالفرنسية.

شعر لوريانو بأن الأرض أبحرت به فجأةً، واضطر إلى أن يتشبث بالمنضدة مرة أخرى. في ذهنه كانت دائمًا للقصة نقطة التحوُّل تلك: في لحظة ما أمطرت السماء طفلين جميلين لتتضح الأمور. تلك العلامة السماوية التي تضرع إليها أسابيع؛ لكي يحتمل الاختيار الصائب ويتوقف عن العيش كأنه مقسوم إلى نصفين. في البداية كان أمرًا غريبًا رؤية دوناتيلَّا ونيفيس كلتيهما حبليين ـ بل إنه لمدة من الوقت كَرِه شيليراي تلك (ذلك الغضب كان وقودًا مهمًّا لينقي رأسه من حب مستحيل): على الرغم من علاقتهما منحت نفسها لزوجها، وتفتخر بذلك بتلك الملابس المتسعة التي تشهد على الانتظار السعيد. الملابس نفسها كانت ترتديها زوجته، وتكتشف بالطريقة نفسها أنه يفعل الشيء نفسه ـ لكن من المعروف أن ابتعاد الرجل عن فراش الزوجية يمكن أن يثير شكوك الزوجة. على كل الأحوال استمرار بوتاي في لعب دور الفحل كان في مصلحة الجميع. حتى في مصلحة أنتيو (الذي لم ينقصه شيء). وشاعرًا بالقوة جراء التطورات الأخيرة والآلام الماضية بصق الكلمة في وجهها من دون لف ودوران:

ـ ملعونة!

قفزت نيفيس في مكانها:

ـ ماذا تقول؟

ـ كنتُ على حق: بموت أنتيو تأتين لتصفية الحساب، بعد ثلاثين عامًا. لكنها تسلية ستسقط على رأسكِ في لحظة واحدة: ستحطمين دوناتيلَّا، وتدمرين ابني أماديو، ومعه زوجته وابنه. لكن لتحترسي: لن تكون نهاية لاورا أفضل بكثير. فلها أب مات للتو، لتكتشف على الفور بعدها بأنه حي يُرزق، لكنْ له اسم آخر.

لم يستطِع لوريانو أن يمسك نفسه، فأضاف:

ـ ثم مَن قال إنها ابنتي؟ إنها مجرد تخاريف أرملة تتحدث مع الدجاجات.

بدت نيفيس وقد تحجرت، فلم يرمش لها جفن. وفي الصمت الذي تلا ذلك، أخذ بوتاي يغلي متوقِّعًا أي شيء، من السباب الأكثر انحلالًا إلى ضحكة مجنونة أخرى. بل وافترض أنها ربما تغلق الخط، ثم يسمع صوت جرس الباب في منتصف الليل، وتلك العجوز المشتعلة مستعدة لتتسبب في اندلاع نهاية العالم، وتجذب باليوكي أيضًا من السقف. رأى لوريانو نفسه يستأجر غرفة في فندق مثل

البائسين الذين يدمرون زواجهم بعد ثلاثين سنة من جراء نزوة. إلا أن في حالته فهو يقترب بقوة من سن السبعين، بكل ما يتضمنه هذا من عواقب. بما في ذلك أفق الأشياء الذي بدأ في الإظلام جديًّا. بما في ذلك واقع أنه في سن معينة يمكن للوحدة أن تخيف بشكل مرعب. إلا أن كل شيء ذاب في ثلاث كلمات قالتها هي بهدوء. نفختها تقريبًا بنعاس:

ـ كان أنتيو يعرف.

هذه المرة انفجر لوريانو في الضحك، لكن لمدة قصيرة:

ـ قولي غير هذا.

على الرغم من هجومه، شعرت نيفيس فجأةً بالهدوء، بل بالسعادة، بطريقة لم تحدث لها منذ زمن. قالت:

ـ في الأيام الأولى كنت أحلم. ابتعت أنت تلك السيارة «الألفيتا» مثل سيارات الشرطة. حقد عليك كثيرون بسببها. لم تشبه بأي حال سيارتك الـ١٢٧ المليئة بالتكتلات وأكوام القش على مقاعدها، تلك التي عرفتها، أخرج منها وفي المنزل أكتشف كدمة في مكان غريب... وقتها كنت في الشهر الثالث ورأيتك للمرة الأولى وأنت تقود مسرعًا سيارتك الجديدة اللامعة.

وشعرت بشيء مثل ضربة عصا على الأسنان وفكرت: لقد محاني لوريانو تمامًا. إلا أنني بدأت في الحلم.

ـ بماذا؟

ـ اسمع هذا الهراء: لم أفعل ذلك ولن أفعله أبدًا، لكن في الحلم كنا في السيارة التي تجري بأقصى سرعة على طريق، على ناحية جبال وعلى الناحية الأخرى يوجد البحر. كنا في فرنسا، لم نتبادل ولو كلمة واحدة، لكن في لحظة ما، دائمًا، تتلفت وتنظر إليَّ. سكارى من ذلك الجنون الذي ارتكبناه لتونا وأمامنا كيلومترات لنقطعها لنصل إلى أمريكا. حاول أن تفكر كيف شعرت عندما جاءت لاورا لتقول لي إنها وضعت عينيها على ذلك الشاب من لينجوادوكا. أحيانًا تصل إليك إشارات مثل الصواعق على الرغم من السماء الصافية. كل هذا لأقول لك إنهم لن يروني أبدًا أقترب من تلك المنطقة. ففرنسا بالنسبة إليَّ كانت حلمًا آخر.

حاول لوريانو أن يتماسك على الرغم من أكثر تعب شعر به في حياته إثر سُكرٍ. رأى أن عليه قول شيء ما، لكن لم يستطِع. استمرت نيفيس:

ـ بمجرد أن أفتح عينَي تستقبلني ضربتان في معدتي، واحدة أنني لا أزال في فراشي المعتاد، والأخرى أن

أعرف أنني في انتظار ابنتك. هي أيضًا ظلت على قارعة الطريق معي. أحيانًا يجدني أنتيو غارقة في الدموع في الساعة التي يعود فيها ليشرب القهوة، ويعتقد أن ذلك نتيجة تقلبات الحمل.

ـ كيف استطاع أن يعرف؟

ـ عمل كثيرًا في الحقول، لكنه لم يكن غبيًّا.

ـ لم يفكر أحدٌ قَطُّ في غير ذلك.

ـ كان عمر لاورا تسع سنين عندما اكتشفت ورقة ما.

ـ أي ورقة؟

ـ أجرى بعض التحاليل في السر.

ـ حسبما قلت: تحاليله كانت جيدة جدًّا حتى اليوم الأخير.

ـ النتيجة واضحة للغاية، حتى أنا فهمت ما جاء فيها: فهو يقذف فوارغ. ربما ما قضى على خصوبته هو إصابته بدور جُدَري خفيف في مراهقته.

تلقى لوريانو أيضًا تلك الضربة. فكر كم هي عاهرة الحياة، عندما تقرر ذلك. وأيضًا في هذه الحالة رأى من جديد آلاف اللحظات التي قضاها مع ذلك الصديق. بمعرفته أن أنتيو حمل سرًّا بهذا الحجم جعلته يرسم من جديد كل

تحية صباح تبادلاها في كل تلك الأعوام، بدايةً من مقاعد المدرسة حتى مقاعد البار، وعندما شربا معًا كؤوس النبيذ الأخيرة. وبدأت أنفاسه تضيق فعلًا.

ـ نيفيس، هل انتهيتِ من كل اعترافاتكِ؟

ـ ماذا تفعل، هل تشكو؟ لقد حصلت أيضًا على شخص مسكين رعى ابنتك كل حياته مثل ابنته من دون أن يتفوه بحرف. بل، عندما كان يستدعيك لرعاية حيواناته يجزل لك العطاء تعويضًا عن الإزعاج. هذا مجرد مثال لكي تفهم ماهية الرجل الحقيقي الجدير بحمل هذا اللقب.

هاجمها بوتاي مثلما تفعل الثعالب عندما تُحبس في زاوية:

ـ تلقين بابنةٍ على رأسي في سن السبعين تقريبًا. هل يبدو لكِ هذا شيئًا طبيعيًّا؟ عمومًا أكرر لكِ مرة أخرى: كل هذا يحتاج إلى إثبات.

ـ تكفي شَعرة.

ـ ماذا؟

ـ في الوقت الحالي يكفي أن تنزع شعرةً، وفي خمس دقائق يقول لك الأطباء من أي جنس أنت. أنت تعرف هذا بالتأكيد.

ـ فكري إذا انتهى هذا الأمر إلى اليد الخطأ. لم أُهِنْ عائلتين في تلك الحقبة، تخيلي إذا كنت أستطيع أن أفعل هذا الآن. عمومًا أحسنتِ، استطعتِ الانتقام. عثرتِ على طريقة لتقتليني في سُكريِ بأحسن الطرق. هل أنتِ مسرورة الآن؟!

ـ لكلٍّ منا روزا التي تطارده.

ـ لتذهبي إلى الجحيم أنتِ وهي.

ـ ما هذا الذي تقوله؟

ـ أتبدو لكِ هذه طريقة معاملة مع إنسان؟ تحضرين إلى هنا مساء يوم ما، وتبدئين في كشف كل شيء. ساءت أحوال حياتكِ، والآن تدمرين أيضًا حيوات الآخرين. في اللحظة الأكثر حرجًا في حياتهم، بل والأكثر من ذلك، في اللحظة التي يستعد كلٌّ منا بكل سرور أن يرفع مجاديف قاربه. أتعرفين كأنني أراكِ، في ذلك المنزل المفقود في الهضبة، في وسط الخنازير تجترين الذكريات وتسممين دملكِ حول الكيفية التي كان يمكن للمغامرة أن تسير. أتعرفين رأيي؟ إذا اتخذت قصة ما مسارًا معينًا، فهذا يعني أنه هكذا لا بد أن تؤول الأمور. فلتهدِّئي نفسكِ!

ـ عمومًا يوجد خطاب.

ـ والآن بماذا تخرفين؟

ـ لقد فهمت جيدًا جدًّا. خطاب جميل فيه أحكي كل ما حدث بالتفصيل الممل. وفي الوقت المناسب سيصل إلى حيث يجب أن يصل.

شعر لوريانو بأنه كاد يسقط على الجهة اليمنى، استعاد توازنه في الوقت المناسب. الآن أصبح مثل كيس تُكال له اللكمات.

ـ عمَّ تتحدثين؟

ـ هل صعدت كل الكؤوس التي تناولتها في حياتك إلى دماغك مرة واحدة؟ أقول لك ما قلته.

ـ أين هو؟

ـ مَن؟

ـ هذا الخطاب الذي تهذين به.

ـ حيث يكون.

ـ وماذا ستفعلين به؟

ـ لا شيء. إنه للتاريخ. في الظرف مع الوصية. وعندما تحين الساعة سيُسلَّم إلى مَن يهمه الأمر.

ـ لاورا؟!

ـ أدين لها بذلك.

ـ أنتِ مجنونة. بالإضافة إلى حدادها على أمها الميتة تريدين أيضًا أن تقلبي حياتها.

ـ أفضل من إدراك أنها تعيش من دون معرفة حقيقتها.

ـ شخصية أنانية.

ـ وقعها سيئ جدًّا منك.

ـ لا ذنب للاورا. لكن نظرًا إلى أنكِ جُننتِ تريدين أن تتركي إرثًا من هذا النوع؛ لكي تريحي ضميركِ وتكون لكِ الكلمة الأخيرة. لن تربحي أي شيء: فما حدث قد حدث فعلًا. معرفة الحقيقة لن تقودها إلا إلى الجنون، هل تفهمين ذلك؟

ـ أوه، تهتم بها الآن.

ـ بالتأكيد أهتم بها، أنا لست وحشًا.

ـ يقول الذئب.

ـ فكري في الأمر: كيف ستستقبلين هذا الأمر لو أنكِ مكانها؟

ـ بشكل سيئ.

ـ بالضبط. هل تنفيذ انتقامك سيريحكِ أكثر من تركك ابنتك في سلام؟

ـ أعرف ما ترغب في عمله!

ـ ماذا أريد؟

ـ ترى أمامك ابنة لم تعترف بها قَطُّ تظهر فجأةً في منزلك وتسبب لك فوضى كبيرة.

ـ هل أنتِ حمقاء؟ لم أعترف بها، لأنني اكتشفت الآن فقط أن عليَّ الاعتراف بشيء ما.

ـ احترس في كلامك!

أدرك بوتاي فقط شيئًا واحدًا: الطريقة الوحيدة هي أن يحتفظ بثباته ويحاول أن يعيد تلك المجنونة إلى صوابها. بل فُوجئ بفكرة متوحشة تخطر بباله: الذهاب إلى ربوة كوربِلُّو في عز الليل، يطعن نيفيس ويحرق كل شيء بما في ذلك الدجاجة. الآن أكثر من أي وقت سابق لا يمكنه إغلاق الخط. لا بد أن يترك الأرملة معلقة هناك. فرض على نفسه الهدوء، لكنه أمر صعب للغاية. يشعر بكل شيء يغلي بداخله.

ـ اسمعي، أنا آسف على كل شيء. تأكَّدي أنني إذا أخطأتُ، فقد فعلت ذلك بحسن نية.

ـ لا يمكن نزع أحشاء شخص بحسن نية.

ـ إذن هذا ما سأقوله: نقصتني الشجاعة. هل يجب أن أقتل نفسي؟

ـ لا تقلق، سيفعل الشرب هذا.

ـ وهل تعتقدين أن لا دخل لكِ في هذا؟

ـ ماذا؟

ـ بدأت أشرب في ذلك الوقت.

ـ بصرف النظر عمَّن سبق مَن، لكنني أنا أيضًا كنت موجودة، رأيتك بأُم عيني. تلك الأسطورة الخاصة بك وبفيراري عندما أنهيتما دمجانة تحتوي على عشرين لترًا من النبيذ في يومين، تُحكى قبل أن يحدث أي شيء بيننا بكثير.

ـ ثم ساء الأمر.

ـ أنت بمفردك ابتعت ثلاثة عقارات في مدينة سيلفيستري. أخطأ أنتيو في كل شيء: مع وجود عطشى للشراب في ثرائك كان عليه أن يفتح محل مواد غذائية آنذاك. ربما تمكن وقتها من أن يأخذني كل صيف إلى البحر.

ـ لم تغادري قَطُّ.

ـ قلتُ هذا الآن لتوي.

ـ أقصد لم تغادري أفكاري. يجب ألا أقول هذا، لأنكِ تحبين استكمال السيطرة على الموقف، لكن هذه هي الحقيقة: كان الأمر مثل الغارات المستمرة.

ـ الآن تتحدث بالألغاز.

ـ سأمنحكِ دقيقة مما أتحدث عنه: تفتحين عينيكِ ولا تفكرين إلا في هذا الأمر، وتغمضين عينيكِ بينما تفكرين فيه. ويستمر اليوم في هذا العذاب. ثم يلومكِ أحدهم لأنك تشجعين نفسكِ على أن تتجرعي بعض الزجاجات. أفهم جيدًا، فأنتِ تنظرين إلى الأمر من جهتك، عندما تُركتِ وحيدة على قارعة الطريق مع حقيبتك. لكن إذا نظرتِ إليه من مكاني، فلن تجدي نفسكِ في الفردوس أيضًا.

تضايقت نيفيس من الاستماع إلى تدفق المشاعر هذا. وفجأةً أبعدت السماعة عن أذنها، كأنها تستمع إلى كلمات البيطري من خلف احتراق خشب المدفأة. استنتج لوريانو التأثر على الناحية الأخرى من الخط، فلم يتردد:

ـ على منحنى ربوة كوربِلُّو لم تمكثي بمفردكِ، حيث يوجد بوتاي آخر أيضًا مُسمر معكِ هناك، في ليلة أكتوبر تلك.

الكحول الذي تجرعته في مهرجان الخريف ذلك، كان له تحديدًا هذا الدور: أن يشجعني. حيث عليَّ أن أنزع خيطًا مهمًّا، شعرت آنذاك بأن أهم ما في الحدث هو الخطوة الأولى، مثل كل الأمور. بمجرد تخطي تلك يتوالى كل شيء آخر. ولديَّ أيضًا أدلة على هذا.

ـ أي أدلة؟

ـ لقد استغللت ذلك العصر، عندما كانت دوناتيلَّا في المحل تصفف وتثبت الشَّعر. عدت إلى المنزل قبل الموعد لأحصل على ساعة من الهدوء، أخرجت ورقتي، حيث دوَّنتُ كل الضروري لأترك تلك الحياة وأنطلق حتى نهاية العالم معكِ. قائمة بأفضل الملابس، شيئان أو ثلاثة من مقتنيات العائلة أتمسك بها، وضعت الحقيبة على الفراش، وقد تشجعت، الخزائن والأدراج والمصاريع كلها فُتحت وأُغلقت في وقت قياسي. وضعت كل شيء في الحقيبة، وملأت كل مساحة فيها إلى المليمتر الأخير. أمر يثير القشعريرة: إذا أراد شخص، يمكنه أن يمحو آثاره من منزل ما في تسع دقائق.

ـ لأنك رجل، بالنسبة إلى النساء يمكننا عمل ذلك في غمضة عين.

ـ ودليلًا على كل النوايا الحسنة يوجد أيضًا ما يفيد

السحب النقدي الذي أجريته في البنك ذلك الصباح. أخذني كروتشيتًا إلى المكتب على الرغم من أنه كان موعد الإغلاق. عندما قلت له إنني أريد أن أسحب عشرة ملايين، قال لي: «أوه، ستتركنا بملابسنا الداخلية هكذا!». ثم أضاف مازحًا: «هل أنت ذاهب إلى القمر؟». لم أُجِبه، دقَّ قلبي كالطبل. أدرك هو أنني لست في مزاج للثرثرة، واتجه إلى الخزانة. بعدها بدقيقة وضع البنكنوت على الطاولة. وسألني: «هل تريد أن ألفها لك؟»، وشعرت بأنني لدى بائع الخضراوات. لكن تخيلي الحظ التعس الذي يمكن أن يحدث أحيانًا: بمجرد أن خرجت، سمعت أحدهم ينادي اسمي. كانت دوناتيلَّا التي خرجت لتوها من المحل، واستغلت الفرصة لتبتاع بعض الأشياء قبل العودة إلى المنزل. شعرت بأنني أتهشم على الأرض. قلت لها إنني ذهبت من أجل بعض التوقيعات. ابتلعت هي الكذبة بينما تستمع إليَّ بأذن وأخرى لا، لم تكن شغوفًا قَطُّ فيما يتعلق بالأمور المالية. ولم تُلقِ ولو نظرة على الرزمة البيضاء التي أضعها أسفل إبطي (رأتني كثيرًا، في تلك المدة، أجول بصناديق كبيرة أو صغيرة بها أدوية أو أدوات أستخدمها في عملي). خرج كروتشيتًّا ليغلق المكان، ورأى زوجتي: «أوه، يوم سعيد! يوم سعيد لك

يا سالفاتوري». ثم أدرك قتامة وجهي، وألقى نظرة على مدخرات العمر التي أضمها إلى صدري. مَن يدري ماذا خطر بباله آنذاك! في النهاية بلع ريقه ورحل، بينما أنا أقف مكاني وأشعر بأن دبابيس عديدة تخترق وجهي.

كان غريبًا بالنسبة إلى نيفيس ـ بعد كل تلك الأعوام ـ تخيُّل مشاهد معينة بالنظر من الجهة المقابلة. إلا أن بوتاي أكمل حديثه:

ـ فكرة الشرب للاستقواء هي ضعف الحمقى. أدرك ذلك فقط وأنا في الفراش مع دوناتيلَّا التي أطلقت بالفعل نفيرها. أجلس ثابتًا مثل المومياء، لكن ذلك بالتحديد هو الفخ، فقد بدأ جفناي في الانغلاق. في لحظات كنت أستيقظ من غفلة مدتها ثوانٍ بألم في معدتي: هل فاتني الموعد؟ يسير المنبه ببطء حلزون، وفي الوقت نفسه بسرعة أرنب بري، حتى حانت الساعة. نهضت من الفراش وبدأت في حساب التحركات التي تدربت عليها كثيرًا. كان لا بد أن تريني آنذاك، بدوتُ كراقص باليه. من كثرة المرات التي أعددت فيها تلك الحقيبة بدأت أتحرك كالآلة. إلا أنني سرعان ما شعرت بغبائي، فلم أحسب جيدًا حساب الضوء الخافت. كان يكفي إغلاق المصاريع والستائر. فشلت في المحاولة الأولى

واصطدمت بمقابض الأبواب وزوايا الأثاث. إلا أنني بما يتعلق باللمسات كنت قد أصبحت فنانًا، ويمكن القول إن لي يدًا جنية. أخذت أغلق السحَّابات، وأفتح الأبازيم. أكرر على نفسي أن الدورة المتأخرة التي حدثتني عنها ستأتي كالمعتاد، كما حدث في مرات سابقة. «إنها لعنة الشيطان الذي يريد أن يبعدني عن خطتي». هذا ما فكرتُ فيه بينما واصلتُ التحرك كالشبح. في النهاية أخذت الحقيبة حتى باب المنزل. كنت أتصبب عرقًا. لكن لا بد لي من الاستمرار، من دون أن أغرق في تلك الرمال المتحركة التي أشعر بها جيدًا ـ رمال الذنب ـ: أن أترك زوجتي هنا، مثل بقرة مذبوحة لكي تصبح أضحوكة البلدة. وعلى العتبة أدركتُ أنا أيضًا أنني أرتدي خاتم الزواج. وكانت النية هي أن آخذ من على الصحن الصغير الذي نضعه على قطعة الأثاث مفتاح السيارة الـ١٢٧، وأن أترك الخاتم. لكنني لم أستطِع خلعه. فجأةً تحولت إصبعي إلى غصن شجرة دردار. بدأت صراعًا لم أتوقعه قَطُّ، حتى تجمع الدم في وجهي. «الآن سأنزعه!» اجتهدت كثيرًا حتى لا أنظر إلى الجانب الآخر الذي يتحدث بوضوح، والخاتم يقول: «لن تذهب إلى أي مكان يا جميل». ويقول: «إذا كان لديك عطش كبير للعالم، خذني معك. إمَّا هكذا وإمَّا فلا». عندئذٍ تضايقت

أكثر، وأخذتُ أتحرك كالمجنون. عندما أشعلت دوناتيلَّا نور الردهة وجدتني أمام الباب شبه منكوش وأنفاسي هائجة كالثور، كأنني ألاكم نفسي.

ـ يا أمي!

ـ لا أعرف ماذا رأت. فقد كانت دائخةً من النعاس، وقالت وهي تحدق بعين: «هل ارتديت ملابسك من جديد!»، كنت قد وضعت سترة الأمطار، لكن الأسوأ أن الحقيبة الكبيرة على بعد خطوتين مني. قلت: «سأذهب لأستنشق الهواء». أحيانًا أفعل ذلك، خصوصًا إذا شربت نوعًا رديئًا، من تلك الأنواع التي لا تُسكر لكن تطرحك في الفراش كأنك في عرض البحر، وتصبح الحجرة مثل أرجوحة مَلاهٍ خبيثة. شراب «الفرنت» ـ مثلًا ـ يتسبب لي في هذا. وفي بعض الحالات أستيقظ في السيارة، كأنني سقطت من كوكب آخر. استمرت دوناتيلَّا: «أعتقد أن اللازانيا التي أكلناها فاسدة»، وفقط عندئذٍ أدركت أنها شاحبة بعض الشيء. كانت تضع يدًا على فمها والأخرى على معدتها: «أشعر بحجر هنا»، بعدها بلحظة جحظت عيناها وجرت نحو الحمَّام. ماذا كان يمكنني أن أفعل؟! جريت خلفها. بل إنها تقيأت قليلًا على الأرض في أثناء جريها. وعثرت عليها ورأسها في المرحاض.

وهي علامة على أن تأخر الدورة لم يكن شيئًا يُستهان به. على كل الأحوال كنت قد انكشفت.

ـ وفي ذلك الوقت تقف مَن كادت تموت بردًا في شارع ما.

ـ استمر هذا الوضع طوال الليل. وبدلًا من أن أغزو العالم بسيارتي الـ١٢٧، أخذت أنظف التقيؤ من على البلاط. وماذا تظنينني؟ كنت أفكر فيكِ. أرى صورتكِ وأنتِ على قارعة الطريق. عادت دوناتيلَّا إلى النوم بعدما تجاوزت الساعة الثانية. وجدت نفسي مُسمَّرًا على الفراش، بينما في افتراض آخر للأمور سنكون قد تجاوزنا مدينة ليفورنو منذ وقت. استيقظت وأنا في ملابس الخروج، وفي لحظة نهضت فورًا. لم تكن زوجتي في الفراش، ومن المطبخ وصل الضجيج المعتاد. عندما ذهبت إلى هناك، وجدتها بكامل ملابسها، وقالت: «يا لها من ليلة». بدا أنها استعادت لونها، لكنها تفعل المستحيل لتتجنبني، تغسل فنجانًا، تضع قهوة الشعير على المائدة، وهكذا. في النهاية أدركت أنها تأخرت على المحل وأخيرًا تكرمت بالنظر إليَّ وقالت: «هل أنتظرك على الغداء؟». سؤال تطرحه دائمًا، وعادةً إذا كان عليَّ تفقد حيوانات في أي مزرعة في الجوار أفضل أن أظل في الخارج وآكل شطيرة. كلماتها رنت ذلك الصباح مثل

فيل يحطم غرفة الصالون. أومأت بالإيجاب ورحلت هي. حتى الطريقة التي أغلقت بها الباب بدت لي مختلفة. حتى رأيتها: الحقيبة لا تزال هناك. نظرًا إلى الإنهاك الذي شعرت به من مغامرات الليلة، نمت من دون أن أعيد الأشياء إلى أماكنها.

مكث كلاهما مُعلَّقًا بتلك الكلمات الأخيرة. وخصوصًا نيفيس، التي فجأةً شعرت كأنها فقدت النطق. فأكمل لوريانو مرة أخرى، بدا كأنه يجر ميتًا من قدميه:

- رآني كروتشيتًّا عائدًا باللفة نفسها التي أعطاني إياها في اليوم السابق. هذه المرة لم يقُل أي شيء. وضع النقود في الخزانة، وجعلني أدفع الأتعاب وتبادلنا التحية.

استعادة بعض الأحداث أفرغت كليهما، وبدأ أيضًا ثقل الليل يحل عليهما. من جهة بوتاي الذي بسبب تلقيه بعض الركلات وبسبب استعادة بعض الأحداث الصعبة يشعر الآن بأنه كالمصفاة. ومن جهة أخرى نيفيس، التي شعرت بأنها حُرمت فجأةً من ذلك الغضب الذي كان يغذيها نصفَ حياتها، مثل مجمرة موضوعة أسفل الرماد، ذلك الذي لا يطفئ المدفأة أبدًا. الآن بدأت تشعر بالعطف على لوريانو، بل فوجئت أنها حررت تلك المشاعر التي دفنتها أعوامًا كثيرة. كم هو غريب عودة عشق قديم ليبدأ

من جديد في سن متقدمة! تنحنحت، ثم قالت بنبرة غزال خائف:

ـ إذن لماذا لم يبحث أيُّنا عن الآخر بعدها؟

نظر بوتاي إلى المرآة التي إذا عكست بدقة تامة مزاج البيطري سنراه مُحطمًا تمامًا.

ـ كيف أعرف؟ شعرت بالخجل.

ـ أتعرف، كنتُ أشعر بغضب شديد.

ـ اختفيت من دائرتنا، هذا أتذكره جيدًا.

ـ زلزال كهذا سيدفن أي شخص أسفله. احتجت إلى أسابيع لأجد الشجاعة للعودة إلى البلدة. اختلقت آلاف الأعذار حتى لا أضع قدمَي في سوق الخميس.

ـ أكان أحدهم سيطلق عليك الرصاص؟

ـ لو لهذا، لأقمت خيمة في ميدان سان سيباستيانو، وليثقبوني حتى بالرصاص! لكن فكرة أن أراك مرة أخرى كانت تقتلني. وخرجت من جديد عندما ابتعتَ أنتَ تلك السيارة اللامعة.

ـ أحمقان.

ـ تحدَّث عن نفسك.

ـ أنا تائه في دوامات الخجل، وأنتِ غاضبة كالشيطان.

ـ بل أسوأ.

ـ وفقد كلٌّ منا الآخر.

ـ بل أسوأ.

ـ وألقينا بأنفسنا بعيدًا.

ـ ثم قال أنتيو في صباح أحد الأيام إنه اتصل بك.

ـ نعم.

ـ بسبب ذلك الحمار الذي بدأ يتصرف كالممسوس. يرفس ويزبد ويتدحرج على الأرض. لم نحتمل عندما بدأ يضرب بحوافره على بطنه. منظر ينزع قلبك من مكانه. شيريفو! هذا كان اسمه. سميناه هكذا لأنه يحمينا من الغرباء، يرى أي غريب قادمًا ثم يبدأ في النهيق واضعًا حوافره على السور. يؤدي عمل روي، الكلب الجميل الألزاسي الذي يهز ذيله حتى للثعابين. يا لحظِّه!

ـ كأنني أراه أمامي الآن، ذلك الحمار كان مشاغبًا فعلًا. وقتها كان يعاني مغصًا في القولون. وأنا أيضًا، من مجرد فكرة أنني سأذهب إلى ربوة كوربِلُّو لهذا الأمر العاجل.

ـ مكثت كل الوقت داخل المنزل. بل بمجرد أن سمعت

محرك السيارة من الشارع حبست نفسي في غرفتي. مكثت بالداخل، وأنا أفكر في أن شخصًا يُدعى بوتاي على بعد بضعة أمتار مني. لم أعرف ما أفعل، فبدأت أيضًا أُصلِّي. كم كنت حمقاء!

ـ كدت أفقد عيني وأنا أفحص ذلك الطفل الكبير. فجأةً رفسني بقوة، حتى اليوم علامتها على وجهي، لم يحدث هذا لي من قبل ولا من بعد. فأنا أميز جيدًا تصرفات الحيوانات. وهذا مثال لتدركي كيف كانت حالي. أتذكر ذلك الحمار من حين إلى آخر.

ـ آه، كم أردت أن أخنقك! فجأةً أسمع اسمي من الخارج: «نيفيس، نيفيس!» تمنيت أن أختفي. أصل إلى هناك وأجدك ووجهك مغطًّى بقناع من الدماء.

ـ لم أفهم جيدًا ما حدث. كنت أسير من دون أن أعرف أنني أفعل ذلك، شيء أقوى من السُّكْر. يقودني أنتيو إلى المسكن، وبداخلي يوجد لوريانو طفل أتناقش معه وأقول له: «لا تتجرأ وتقُل شيئًا تندم عليه». إلا أنني لم أدرك إذا كان تخريفي هذا مسموعًا أيضًا، وبعد ذلك وجدت نفسي جالسًا على مقعد.

ـ منشفتان.

ـ كيف؟

ـ منشفتان غارقتان بالدماء.

ـ وماذا قلت؟

ـ لا شيء. كنت تنظر حولك بعينيَ شخص غريب. وفي أثناء ذلك كاد زوجي المسكين يفقد عقله، وأخذ يصيح أنه سيأخذ البندقية المزدوجة ويطلق النار على الحيوان. فكر في محاضر الشرطة وتلك الأشياء، وقلق أيضًا من إمكانية إصابتنا بالسعار.

ـ هناك لحظة أعرفها أنا فقط.

ـ أي لحظة؟

ـ أجد نفسي في حالة تشوش رهيب، ولا حتى اللطمة التي تلقيتها من ماشيستي وأنا في العشرين كان لها ذلك التأثير، على الرغم من أنني سرت بعدها أسبوعًا لا أرى ما على يميني، واستمر صفير في أذني شهرًا أو شهرين. فجأةً فُتح ذلك الستار ورأيتكِ أنتِ.

ـ يا له من مشهد!

ـ كنتِ قد رفعتِ شَعركِ، لكن خصلتين تحررتا ونزلتا على وجهكِ.

ـ أتحداك: وقتها أخذتُ أضغط على القماش بكل قوتي. فجبهتك مفتوحة والنزيف لا يتوقف.

ـ كنتُ أرى كل شيء مشوشًا إلا وجهكِ. تصل إليَّ كلمات أنتيو كأنها قادمة من بئر على بعد مائة كيلومتر.

ـ حوافر حمار تتسبب في هذا التأثير؟!

ـ أنتِ مَن تسببتِ في هذا التأثير.

ـ توقَّف. ثم وصلت سيارة الإسعاف.

ـ أنا لا أتذكر هذا.

ـ عندما أخذوك، شعرت بالفراغ. ووجدتني أجلس على المقعد نفسه الذي جلستَ عليه قبل دقيقتين.

ـ عدتُ إلى وعيي في اليوم التالي بتذكارين: دائرة ضخمة على رأسي، وصورتكِ أنتِ بخصلتين متمردتين. كانتا تأمرانني ألا أنام، وألا أبحث إلا عنكِ، كنتُ أراكِ فوقي. وكانت دوناتيلَّا تهزني إذا وجدتني فجأة سارحًا، وأحيانًا تسقط مني دمعة بلا سبب.

ـ قالوا إصابة حادة في الرأس.

ـ قضيتُ شهرًا على هذه الحال، أعيدُ فحصَ كل ما فعلته. كنت أستطيع الحركة لكنهم أمروني بعدم الحركة. حتى

عند لف رقبتي كان عليَّ أن أتخذ سلسلة من الاحتياطات، بينما أردت أن أطير إلى ربوة كوربِلّو ثانيةً لأقول لكِ: «اصمتي وهيَّا نذهب. من دون حقائب أو نقود أو شيء». كنا سنعيد صناعة أنفسنا في مدينة بالما دي مايورك أو بين الجِمال، لم يعد يهمني شيء من أمريكا. كنتِ أنتِ أمريكا.

ارتعشت أنفاس نيفيس، في لحظة تغربت عن نفسها ورأت كل شيء كالسينما هي ولوريانو لا تعرف أين، طارت حياة بأكملها إلى حيث كان يمكن أن تذهب ولم تفعل. حلوى من السُّم ابتلعتها على الرغم منها. وشعرت بالحكة في يديها، كم كانت غبية! حتى البيطري لم يخدعها إذن. في إحدى ليالي أكتوبر وبعد حفلة مهرجان الخريف، في ساعة ما تقرر مصير عاشقين بسبب تلبُّكٍ معوي. إذا لم تكن دوناتيلّا شرهة تلك الليلة. ثم بعدها شعرت بالتعاطف معها أيضًا: لقد استمرت في زواجها على الرغم من معرفتها أن زوجها كان مستعدًّا لأن يذبحها ويهجرها مثل لص مخادع، ومن دون أي تفسير. على العكس، فعلت نيفيس ذلك، والتزمت بالقسم بينهما. حسنًا، كان الهروب العظيم على بعد ثلاثين مترًا من باب منزلها، لكن لم يكن هذا ذنبها. فيما يخصها تفوقت هي عليه في هذا. شعرت الأرملة بموجة

من الحرارة تجتاحها كلها: في ضوء الاعترافات الأخيرة استطاعت أن تكون صورة جيدة للعوائق التي قابلت هذا الحب. بدا لها أن عليها أن تنهض من جديد مثلما يفعل الطفل الذي سقط فوق الحصى، وتخترق كفيه وتكشط جلده، من دون أن يجد حتى صديقًا ليوسعه ضربًا انتقامًا مما حدث له. أدركت نيفيس أنها تفعل شيئًا عجيبًا، إنها تغفر. وحدث لها هذا بطريقة عفوية. فهمت ذلك: كان شيئًا كالسجن الجديد، لم تعتده قَطُّ، يهدئها قليلًا، ومن الناحية الأخرى يمزقها، فلم تعش قَطُّ بلا غضب. قالت في النهاية وصوتها محشرج في حنجرتها:

ـ ربما كنتَ على حق، من الأفضل ألا نتحدث عن هذا الأمر.

وبدت لبوتاي اللحظة المناسبة ليجرب حركته المفاجئة:

ـ إذن فيمَ سيفيدك ذلك الخطاب؟

اضطرت الأرملة إلى أن تؤدي حركات كاراتيه بأفكارها، فنظرًا إلى أنها على ترددات أخرى لم تفهم لوهلة ما يتحدث عنه لوريانو. وشعرت بأنها تسقط من حلم بعينين مفتوحتين. وبدا لها المنظر ـ الذي وجدته أمامها عندما وضعت قدميها على الأرض ـ غير محبب على الإطلاق: فهي في المنزل المعتاد في ربوة كوربِلُّو، وحدها، روحها

محطمة وساقاها تؤلمانها من وقفتها الطويلة لتتحدث في الهاتف. لكنها شعرت بوخز قوي على عصب محدد، وأجابت باندفاع:

ـ دعني أفهم، أتفكر في هذا؟

عضَّ لوريانو شفته السفلى، وأخذ يسب بينه وبين نفسه. فقد أعد وجبة شهية ليلقي بها في أفضل حالاتها. حاول أن يستعيد الوضع:

ـ لا يزال يبدو لي مهينًا، عند التفكير بالذي كان بيننا.

أخذت نيفيس تشحذ أظفارها بعينين كعينَي شيطان:

ـ هل تلاطفني بالذكريات؟ هل أبدو لك حمقاء؟

ـ ماذا تقولين؟

ـ لا تتظاهر بالغباء.

ـ هل حدث شيء وأنا لا أدركه؟

ـ أحسنت. ترفع تلك الأتربة الخاصة باللازانيا والقيء والحكايات المتنوعة، وتحكي عن رؤيتك في قلب معاناتك من ضربة الحافر على رأسك، والمصارف والأشياء الأخرى. كدت أصدق كل هذا. كيف تستطيع أن تنظر إلى نفسك في المرآة؟!

كان هذا ما يفعله بوتاي تحديدًا في تلك اللحظة. أزاح نظره فورًا:

ـ لكن هل قلت شيئًا خاطئًا؟

في لحظة عادت نيفيس إلى سابق عهدها، بل وأسوأ، فهي تشعر بالندم الشديد. أمسكت ندمها مثل السيف، وأخذت تنبح في الهاتف:

ـ أيها الحلزون القبيح الشرير! أيها القرصان! أيها الخسيس الجبان! يا أبشع أنواع الخونة!

ثم وصلت إلى كلمة بدت كأنها تحوي كل البؤس الذي تشعر به، شحنتها مثل طلقة من النار لتطلقها من فوهة بركان:

ـ أيها الوغد!

وصل كل هذا إلى لوريانو مثل قنبلة من النار أطاحت برأسه. شعر بالضياع، وهمهم:

ـ نيفيس، لكن...

كانت هي في لحظة ملحمية، فقد أجهشت بالبكاء. لم تفعل ذلك ولا حتى في جنازة أنتيو، ولا حتى في الأيام التي تبعتها. فها هو يحدث الآن، لأنها ـ بحق السماء ـ

لم تعد تتحمل أكثر من ذلك. فمن خلال لعبة استعادة الذكريات تلك، شعرت بأنها تُركت للمرة الثانية على الطريق. كان بوتاي بالفعل ساحرًا شريرًا: قبلها جعلها تطير في فردوس مفقود ودفعها لتكشف ذلك الجزء من قلبها الذي تركته مخفيًّا منذ عقود، ثم غرس فيها سكين المصلحة. أو ذلك الأمر الخاص بالخطاب، حتى يتأكد أنه لن يُتداول. الصفعة الأسوأ التي تلقتها نيفيس. في الواقع تساقطت دموعها بغزارة كالشلال إلى حد أنها خجلت من نفسها، فقد حفرت قبرها بيديها. بل ورأت بوضوح الأمر الواقع: كيف يمكنها ـ في النهاية ـ أن تلوم لوريانو على رغبته في أن يحمي ما بناه طوال حياته؟ بالنسبة إليها لم يبقَ سوى الوحدة. فبموت الزوج تُركت لتقف في هذا المكان بخُفيها، مثل تلك الأغنية التي كانوا يغنونها في طفولتهم، لتنام بجوارها دجاجة موضوعة على الكومودينو. يرفع النحيب أنفاسها، مع كل رجفة بدا لها أن معدتها تتقلب داخلها. لكنها في النهاية، مستسلمة والسماعة تتدلى أسفل ذقنها، قالت:

ـ حسنًا، سألقي كل شيء.

بدت لبوتاي الفرصة ليسيطر مرة أخرى على الموقف، في كل الأحوال شعر بقبضة في مكان ما، شعر بنفسه كالسياف

ولم يناسبه ذلك الدور. جعلته الأرملة يشعر بأنه شخص وضيع، من أولئك الذين يلعبون بالمشاعر لمصلحتهم، وقال بنبرةٍ حاسمة:

ـ ليصعقني الرب إذا خالف أيٌّ حرفٍ مما نطقته الآن الحقيقة.

لا تزال نيفيس تبكي، استمرت الدموع في الانهمار، ولم تعد تستطيع التحكم فيها. أنفاسها متقطعة، ومذاق المخاط على شفتيها، قالت بطريقة ما:

ـ لا يهم.

دوافع لوريانو واضحة، لكنه رفض حقًّا أن يوضع في تلك الخانة حتى نهاية المباراة. صحيح أنه في البداية لجأ إلى الماضي ليطرِّي أشواكها، لكن أن يوضع في هذا الإطار الآن كأنه الشيطان الذي يستغل قصة حب قديمة لمصلحته؛ فهذا ما يرفضه. لم يكن ليضحِّي بمشاعر وقت سابق:

ـ لقد اختلطت عليكِ الأمور... كالعادة.

ـ هل تسليت على الأقل؟

بدأ بوتاي ـ عند هذا الحد ـ يشعر بالإهانة:

ـ نيفيس، عودي إلى أرض الواقع.

ـ منذ أكتوبر عام ١٩٨٢ وهذا ما أفعله.

ـ أقول فقط إنه من فرط الجنون إيذاء الآخرين فقط لتوضيح بعض الأمور.

ـ إذن أتيتُ إلى هذا العالم فقط لأطيع وتسحقني الأحداث فحسب وأنا صامتة كالفأر؟

ـ الأمر يتطلب بعض التمييز.

ـ لقد هُجرت، وربيت ابنةً مع أب استعرته، والأسوأ أن عليَّ الإصغاء إلى نصائحك.

ـ لا أريد أن أقنعكِ بأي شيء. إذا فضلتِ أن تتركي صخب ذلك الخطاب، فلتفعلي ذلك. أنا فقط أقول لكِ: إن هذا لا يفيد، فمع فكرة الحصول على العدالة تحطمين قلوب أشخاص عدة. ولن تكوني موجودة حتى لتشاهدي العرض.

أخذت نيفيس تتحدث الآن وقد كشفت أوراقها. لم تُدرك متى نطقت بتلك الكلمات، إلا أنها خرجت منها فحسب:

ـ إلا أنها الطريقة الوحيدة لي لأترك أثرًا.

وأدركت بعدها فقط أنها تعرَّت أكثر، ستهدي بانتقالها إلى

العالم الآخر زلزالًا لعائلات عدة. والطريقة الوحيدة التي ستريحها ـ في رأيها ـ ستحرق القليل الذي بنته.

ـ هل تعجبكِ إلى هذا الحد فكرة أن تلعنكِ ابنة؟

شعرت الأرملة بهزة رهيبة:

ـ ولماذا ستفعل هذا؟

ـ لو أنني مكانها، سأفعل هذا. أمي تموت وتترك لي لدى المحاسب قنبلة بهذا الحجم. هدية جميلة، لكن لأي غرض؟! الفاصل بين الحقيقة والعقاب شديد الوهن.

ـ والآن أصبحتَ فيلسوفًا.

ـ هذا شيء يفهمه طفل.

ـ وها أنا الآن قد أصبحت حمقاء!

ـ بعض الأشياء من الأفضل أن تظل حيث هي.

ـ يومًا ما سيصل باندا ليحضر لي حقيبة المشتريات المعتادة، سيطرق الباب من دون أن يسمع الرد. سيقلق بعدها ويطلب رجال الإطفاء. ستُباع الحقول والمزرعة لأفضل عارض، ووداعًا لكل شيء، وسيُمحى كل شيء. ولن يكون لدى ابنتي أي دافع لتضع قدميها في تلك الخرابة مرة أخرى. والشائعات الأخيرة التي ستدور

حول اسمي هي أن نيفيس جُنت بعد موت زوجها، بل وبدأت تتحدث مع الدجاجات... إلا أنني كنت موجودة، بحق السماء! بل وكانت لديَّ لحظات سعادة، للعلم!

ـ لا أحد ينكر هذا.

ـ أي شخص لديه مغامرة يحكيها أو ربما شيء يثرثر حوله الناس لأعوام كثيرة بعده، أما أنا فلا. والحدث الوحيد الذي أريد أن أصيح به للعالم هو متفجرات نارية ربما تحطم منزلين أو ثلاثة. حكاية جميلة، لكنها حزينة. تحكي عن حب تُرك على قارعة الطريق في منتصف الليل.

ـ يبدو أن كل شيء آخر لم تكن له أهمية.

ـ لم أقُل هذا.

ـ هذا ما يبدو.

ـ لم يهمني أي شيء عند ولادة لاورا.

لدى نيفيس القدرة على إطلاق قذائف مثل هذه بدم بارد. عاد لوريانو تلقائيًّا برأسه إلى الخلف وأخذ يحرك جفنيه بعصبية.

ـ ربما لم أفهم جيدًا.

ـ لم أقُل ذلك من قبل بصوت مرتفع.

تنحنح هو:

ـ وأنصحكِ ألا تكرريه مرة أخرى. يبدو سبابًا رهيبًا.

ـ إلا أن الأمر كذلك. وحتى الآن تتسبب لي في ألم، المسكينة. لم يكن نصيبها فقط مع أب غير حقيقي، لكن أيضًا أم لا تشعر بالحب نحوها منذ اكتشافها أنها تحملها. ربما لهذا وُلدت في الشهر السابع، كادت تختنق في الداخل، فتحركت لتخرج.

لم يعرف لوريانو ما يجب قوله. شعر بالقشعريرة. عاد ليرى من جديد ما حدث من وقائع، وأول فكرة خطرت بباله: بين أي ذراعين كدت ألقي نفسي؟!

ثم عاد من جديد ليضع الأمور في نصابها، فعلى الجانب الآخر توجد إنسانة قد تعرضت للإيذاء. وفي ذلك الوقت واصلت نيفيس، فقد فُتح أمامها مجال خاص:

ـ في البداية لم يكن هناك ما يُقال. بل وجدت نفسي في حالة مثيرة، وبدا لي الحمل علامة حب تُشجع على طريق معين. لم أرَ بعدُ أي ورقة، لكن ساورني الشك في أن لأنتيو دخلًا في هذا: فعادةً يعود من الحقول

مُدمرًا، ويتمكن بصعوبة من الاحتفاظ بيقظته في أثناء العشاء. والأكواب الثلاثة ـ أو الأربعة ـ من النبيذ التي يتجرعها لم تساعد كثيرًا. بحق السماء كان يمارس واجباته الزوجية على فترات بعيدة. إلا أنه يفعل ذلك ناعسًا، طريًّا، بعينين زائغتين. على الجهة الأخرى توجد سيارة الـ١٢٧، لونها بني تقف بين يوم وآخر خلف الأحراش في وقت معين. ننظر إلى ذلك الزوج في الأفق، بينما يرفع سحابة من الأتربة بجراره. وفي ذلك الوقت تصدر السيارة الصغيرة صريرًا. وبعد حركات الأكروبات ننطلق في وعود كثيرة مخلصة، متعرقين وجميلين مثل الشمس (وإذا كنت أنت قد طبعت في ذاكرتك صورتي بعد ركلة الحمار لرأسك، فلديَّ صورة لك، قمحي مثل إله، في مرآة الانعكاس الخلفي في تلك السيارة الصغيرة). لم أحتَج إلى إزعاج أي طبيب لأدرك مَن تمكن منكما من الغرس.

شعر بوتاي بالاشمئزاز عندما قالتها بهذه الطريقة، إلا أنه رأى من جديد لقطة محددة في أحد أيام الصيف، حيث تحوَّل بالفعل إلى سمكة أنشوجة نحيفة بفعل تلك الممارسات والحرارة الشديدة داخل تلك السيارة. بل بدا له أنه يستعيد مذاقًا خاصًّا. عادت إلى ذاكرته صورة ثدييها

الأبيضين. ومثلما كانت تفعل آنذاك استمرت نيفيس في التحدث بسرعة:

ـ كان الدليل قاطعًا. في صباح أحد الأيام أفسدتُ على أنتيو لحظة استمتاعه بقهوة الشعير على الإفطار وقلت له: «اسمع. لم تأتِني الدورة منذ ثلاثة أشهر». كان يغمس بسكوتة «ماري»، ويبدو لي أنني أراه الآن أمامي. مكث بالبسكوتة في الهواء بين الفنجان وفمه مدة طويلة، ثم كأنه يحاول استكشاف نتائج معينة، وهو يعلم جيدًا حدود مسؤوليته، قال تعليقًا معينًا. ولو فكرت في لحظة محددة ينقلب فيها مصير العديد من الأشخاص، كانت تلك هي اللحظة بعينها. همس: «على الأقل سنعرف ما يمكن أن نطلبه من عائلة بانديني». لأن فكرة تأجير جزء من الحقول في باله بالفعل، تلك التي لا يستطيع هو الوصول إليها، ولم يكن أنتيو من النوع الذي يستعين بعمال. من الغريب التفكير أن ريع ذلك الإيجار يصل الآن مباشرةً إلى لينجوادوكا، إلى فرنسا نفسها التي لم أرَها ولا أريد أن أراها أبدًا.

بدأ جفنا بوتاي ينعسان، فالغطس في الماضي قد أنهكه بما يكفي، وحاول أن يقود الحوار إلى منحى آخر:

ـ على كل حال...

تجاهلت البيطري تمامًا، انطلقت نيفيس على قطار يخصها بنية حاسمة أن تسير فيه عربة تلو عربة:

ـ بعد الهجران على قارعة الطريق بدأت أشعر بثقل كوني حُبلى، بكل المقاييس. لم تعد الهدية التي اعتقدتها في البداية، بل بذرة ألم ستتحول إلى حياة. تنمو بداخلي من أسبوع إلى آخر من دون أن أتمكن من أن أفعل أي شيء. كل شيء يضايقني، بما في ذلك اهتمام أنتيو المسكين، الذي على العكس مني جُن جنونه، والتصق بي مثل القُرادة. مرت الشهور ولاورا منقوعة في رحمي وسط بحر من الأحزان. تأكل ما آكله أنا، بالإضافة إلى ذلك تمتص الأيام المليئة بالعطن التي أغوص فيها حتى مرفقَي، التي ازدادت مرارة بعد واقعتَي السيارة الجديدة وركلة الحمار. بدا لي أنني أحمل بداخلي روث القرن. الشيء المريح الوحيد هو أنني عرفت أنها فتاة. لو كان ولدًا، لشنقتُ نفسي على شجرة المشمش، فبالتأكيد لن أستطيع تربية بيطري صغير يمكن بكل بؤس أن تظهر علامات روحه الخسيسة أمامي يومًا بعد يوم، لكن فتاة ستخفي ذلك بطريقة أفضل. إلا أن ذلك كان الرضا بالقليل. هكذا قرأت خلاصة الموقف: لقد نُبذت وتلقيت أيضًا هدية، مخلوقة عليَّ تربيتها، لتذكرني كل

يوم بالحماقة التي كدت أرتكبها. وسط ذلك التسونامي وصل إليَّ الخبر أنه أيضًا في منزل بوتاي ينتظران خبرًا سعيدًا. أول شيء فكرت فيه هو أن أنتحر فعلًا بطعن هذا البطن بسن المقص، لأن الصورة اتضحت الآن: إنك كنت تستخدمني لتفرغ ما بداخلك، ثم تعود إلى المنزل وتزيد الجرعة مع زوجتك. في نهاية الأمر كنت أنا المغفلة أكثر من زوجتك. مُغفلة ومجروحة مثلما يقولون. بل وأكثر من ذلك: مذبوحة.

شعر لوريانو بأنه يجب أن يقول شيئًا في صالحه:

ـ نيفيس، سبق وشرحت لك كيف...

في هذه الحالة أيضًا تجاوزته الأرملة مثل رصاصة تمر بسرعة ألف كيلومتر في الساعة بجوار أذنه:

ـ تخلصت من ثقلها في أول مايو. علق أنتيو شريطًا ورديًّا على باب المنزل، كانت بمنزلة إكليل جنائزي في ذكراي. أخذت أنظر إلى لاورا كثيرًا وألمسها قليلًا. أبحث هنا وهناك عن تفاصيل يمكنها أن تفزعني مثل شكل يديها أو أنفها... كان لا بد أن أقاوم الشعور بالغثيان عندما تحين لحظة إلصاقها بثديي. تتسبب ـ مثل ضفدع صغير نهم ـ في جرحي، وترضع كأنها ملبوسة بشيطان. في الوقت نفسه زاد الشعور الذي سيطر عليَّ، فشح الحليب بينما

تريد هي منه أطنانًا، فبدأنا بالحليب الصناعي. وفي الخارج، في أثناء نزهة يوم الأحد في البلدة نقابلكم، العائلة السعيدة، كنت ماهرًا في الاختفاء من الجوار بمجرد أن تشتمَّ وجودنا في الهواء.

ـ أعتقد أنكِ مَن كنتِ تفعلين ذلك.

ـ حقًّا؟

ـ ماهرة في الاضطجاع خلف الأحراش كما في غرفة نومكِ.

ـ اسحب ما قلته الآن.

ـ من وجهة نظري هذا ما بدا لي.

ـ كنت تقيِّمني بمقياس لا يخصني.

ـ بعد ليلة الطريق تظهرين حُبلى، وهو الأمر الذي بالنسبة إليَّ يجيب عن كل التساؤلات. وبالطبع اختفيت، فكرة أن تتلاقى أعيننا ترسلني على الفور إلى أقرب زجاجة. وهو الشيء الذي فعلته بإسهاب بعد اليوم الذي استدعاني فيه أنتيو لأفحص الحمار المسكون بالشيطان.

ـ مع الوقت اعتدنا ذلك.

ـ هذا ما يفعله الزمن: يبتلع الأشياء.

ـ على بوابة الحضانة نتبادل تحية الصباح مثل المعارف الذين لا يقررون أبدًا توثيق العلاقة.

ـ والشيء نفسه بعدها أمام بوابة المدرسة.

ـ في حين أضع المساحيق استعدادًا للذهاب، ينبض قلبي وأدعو بيني وبين نفسي: «أرجوك، لا تدعه يذهب، أرجوك لا تدعه يذهب».

ـ عندما كانت دوناتيلَّا تُصاب بدور برد، أشعر بأنني أحتضر؛ فاصطحاب أماديو من المدرسة وإليها سيصبح واجبي. وعندما أراكِ تقتربين، أشعر بأن أحدهم يجذبني من شَعري، لكنني أتظاهر أنني على ما يرام.

ـ الواجبات في المنزل، ورحلات المدرسة. أتجسس عليك من خلال تلك المناسبات. وأسمع قصص لاورا عن الفصل.

ـ وأنا أيضًا. وتظل أعياد الميلاد دليلًا جميلًا على الثبات الانفعالي. أصل إلى المنزل بعدها وأنا أعاني العطشَ للشراب.

ـ عطلات صيف لا تنتهي، ثم كبر الولدان.

ـ ومن الصف الإعدادي لما بعد ذلك، يذهبان بمفردهما إلى المدرسة.

ـ حتى الدراسة الثانوية.

ـ كانت هذه شديدة الصعوبة.

ـ لكن الأصعب كان أمرًا آخر.

ـ هذا صحيح.

ـ عندما عادت لاورا بالخبر إلى المنزل، احتجت إلى أن أجلس على الفور.

ـ كانت صدمة أيضًا بالنسبة إليَّ. ربما بدأت أفقد شَعري ـ تحديدًا ـ في ذلك الوقت.

ـ أخ وأخته!

ـ هذا لم يكن في إمكاني معرفته. إلا أنني فكرت في كل شيء آخر وشعرت بالألم.

ـ أخ وأخته، يبدأ كلٌّ منهما النظر إلى الآخر بشكل خاص في سن الثامنة عشرة. عندما بدأ أماديو يأتي ليصحبها بالسيارة، توقفت عن تناول الطعام. وأخذت أفقد كثيرًا من وزني، وزوجي المسكين يردد إلى ما لا نهاية: «هيَّا، وماذا في ذلك؟! لا بد أن تخرج للحياة عاجلًا أو آجلًا». أتخيلهما بالقرب من الأحراش، كما فعلناها قبلهما بعشرين عامًا. عشت بشعور من الغثيان المستمر.

والأدهى من ذلك: ماذا لو وُلد طفل عن طريق الخطأ؟ يعرف الجميع ـ حتى الجدران ـ خطورة الإنجاب بين أقارب الدرجة الأولى، حيث يُولد أطفال مشوهون. لم يمكنني عمل شيء ولا قول أي شيء. أصبحت جلدًا على عظم وأنا لا أنام الليل. بل وأهداها أماديو أيضًا خاتمًا، وطلبت أنا من الطبيب منومًا قويًّا. وازدادت لاورا جمالًا. انظر... عندما أتحدث عن هذا من جديد، تنتابني القشعريرة حتى الآن.

ـ ربما ذلك الجانب الكبير من الانجذاب يعود إلى صلة الدم تلك فعلًا.

ـ بالتأكيد. فقد كانا مأخوذين بعشق غير طبيعي، لم ترغب لاورا في الانفصال عنه قَطُّ. تصل إلينا فواتير المكالمات الهاتفية مثل صفعة على الوجه. وافقت بصعوبة على أن تستضيف صديقها في الصالون، ولم أحتمل الاستماع إلى بعض حواراتهما! لكن آخر شيء كنت أحتاج إليه هو أن أعرف أنهما في غرفة ما، فما يفعلانه في الخارج يضعان له حدودًا، على الأقل لقلة الوقت والأماكن المحترمة.

ـ في ذلك العمر تصلح ولو طاولة مليئة بالمسامير.

ـ بالتأكيد لم أكن أشجع ذلك. وكنت أتحمل صراخها

الهستيري. فجأةً أصبحتُ الساحرة الشريرة. لو كان الأمر بيدي، لأغلقت على لاورا حجرتها، وكبَّلتها بسلاسل. وفي أحد الأيام أخذت تخرف بشكل سيئ وتتحدث عن الزواج. عندئذٍ فقدتُ عقلي فعلًا.

ـ جاء أماديو إلى الصالون مثل جندي قائلًا: «أريد أن أخبركما شيئًا». وعندما بدأ تحدث عن نواياه، تحولت دوناتيلًا إلى ضبع: «ما هذا الكلام الفارغ الذي تهذي به؟ أهم شيء التفكير في الدراسة».

ـ امرأة قديسة.

ـ لكن هذا لم يكفِ، فقد اتخذ ابننا ـ العنيد دائمًا ـ قراره. وفي أثناء ذلك تخيلت نفسي يوم العرس، وأنتِ تجلسين على الأرائك الخاصة بأقارب العروس. ومن عاشقين في السر إلى صهرين. وسألت نفسي: أي لعنة تلك؟! إلا أنني رأيت في ذلك شيئًا شاعريًّا، شيئًا تفعله الحياة أحيانًا: فيكملان هما عملنا، إذن، وينفذان ما لم نملك شجاعة تنفيذه.

ـ شاعرية ماذا التي تتحدث عنها؟! هذا ليس سوى سِفاح بين أخ وأخت من أحد الأبوين!

ـ وهذا ما لم أعرفه وقتها. كان يمكنكِ أن تخبريني بالأمر.

ـ بالتأكيد... وأخاطر بقيام الحرب العالمية الثالثة.

ـ لحسن الحظ أن الموضوع في النهاية توقف عند هذا الحد، كما يحدث عادةً مع قصص العشق الكبيرة في ذلك العمر. أراد أماديو الانتحار.

ـ لا بد أن تشكر المخلصة أدناه.

ـ كيف؟

ـ لم أستطِع السماح بأن يغرقا في الوحل الذي صنعناه نحن بغير علمهما، إذ يمكنهما أن يتسببا في ولادة لعنة، من دون الأخذ في الحسبان أن مجرد معرفتي أنهما يتلامسان تجعلني أنتفض.

ـ إذن؟

ـ عرقلة مسار اثنين في الثامنة عشرة ليست أمرًا صعبًا.

ـ نيفيس، لا أصدق ذلك!

ـ بل صدِّقه، ولجأت في ذلك إلى متخصص.

ـ متخصص؟

ـ ودفعت له بعملة من الصعب أن يجور عليها الزمن.

ـ أي؟

ـ جسد صبية نضر لتوِّه.

ـ أي؟

ـ لاورا.

تساءل لوريانو إذا كان على استعداد لثورة جديدة في الأفكار، فقد خمَّن وجود انفجار آخر في الجو. كانت إجابته هي النفي، لكنه في مرحلة لا يمكن التراجع فيها.

ـ هل استخدمتِ ابنتكِ؟

ـ ابنتنا.

ـ ما علينا! هي.

ـ كانت مثل أرنب صغير يتحرق من الشهوة.

ـ احترسي، تتحدثين عن الإنسان الذي أنجبتِهِ للعالم.

ـ تشتعل من الرغبة وكوارث هرمونات أخرى، وكنت أعرف شخصًا دار في هذه المنطقة ببراعة لا مثيل لها.

ـ مَن؟

ـ انظر إلى السقف.

ـ ماذا؟

ـ إذا نظرتَ إلى السقف، ستعرف.

نفذ بوتاي ما قالته، ورفع عينيه إلى أعلى. رأى البياض المحمل ببعض العفن في الزاوية، ثم تمتم مرتبكًا:

ـ نيفيس!

وفي تلك اللحظة تحديدًا فهم، وقال سريعًا:

ـ ريناتو؟!

ـ ومَن يصلح غيره؟!

احتاج لوريانو إلى أن يصارع الدوار للمرة الألف، ها هو باليوكي يعود مرة أخرى بعد ثلاث ساعات من المكالمة، ليسقط على رأسه. وتساءل الآن إذا كان الشخص الذي على الطرف الآخر من الهاتف لك يدبر كل هذا مجهزًا خطة معينة ينفذها الآن! الفكرة فقط جعلته يشعر بأنه يتجمد: هو مجرد بيطري بسيط في المنطقة بدا ذرَّة من التراب أمام دهائها. قال محبطًا:

ـ صديقتي العزيزة، ماذا فعلتِ هذه المرة؟

ـ تحدثنا في البداية: لا يزال ريناتو يبهر الفتيات في العشرينيات حتى اليوم. ووقتها كان مرغوبًا فيه أكثر. ثم على كل حال: متى فقد ذلك المغوي تأثيره؟!

ـ إذن؟

ـ طلبتُ منه.

ـ ماذا؟

ـ لا بد أن يمثل العاشق الولهان.

ـ اشرحي لي! طلبتِ من ريناتو باليوكي أن يغازل فتاة لم تبلغ الثامنة عشرة بعدُ؟

وعندما نطق بوتاي تلك العبارة، هزته رجفة رعب من رأسه إلى أخمص قدميه.

ـ إذا لزم أن أحكي لك المحاولات التي قام بها ذلك البحار القديم ليصطاد فريسته، لمكثنا على الهاتف إلى الأبد.

ـ لا تهمني!

ـ دم نقي.

ـ نيفيس، أوجزي من فضلكِ.

ـ تتنهد لاورا منذ الصباح حتى المساء من أجل ذلك المتسكع الذي لم ينبت له شَعر في ذقنه بعد.

ـ إيه، مهلًا، أنت تتحدثين عن ابني.

ـ شخص قديم في اللعبة مثل باليوكي يستطيع أن يسحق على الفور نملة صغيرة على شاكلته في لحظة.

ـ الآن تثيرين غضبي. لتعلمي أن أماديو ابني...

ـ الواحدة تعشق ريناتو من أجل وسامته، بالتأكيد، لكن الأشياء الأخرى أيضًا. النظرة على سبيل المثال، في تلك الهوة تترك الواحدة نفسها لتسقط بلا مكابح. الكلمات واللمسات. لتحاول أن تضع نفسك في الفراش مع ذلك الذئب العجوز، أداة حرب، يمكنه أن ينزع سروال العذر...

ـ توقفي! لن أسمح لكِ بهذا!

ـ على كل حال. تخيل تأثيره هذا على صرصار حقل صغير بلا خبرة.

ـ يا للقرف!

ـ رجل خبير، هل تعرف ما أقصده؟

ـ قرف!

ـ وافق على الفور.

ـ سأكسر أنفه بمجرد أن أراه.

ـ لم يحتَج إلا أسبوعًا.

ـ فليجرؤ أن يطرق بابي مرة أخرى!

ـ أراقب لاورا، أجدها تعود بهالة ما على وجهها، لكن

لم يكن حزنًا. فجأةً وجدت نفسها في وسط السحب تحملها إلى الفضاء. تسرح في أثناء العشاء دقائق، وبدأ وجهها يزداد خبثًا. تمامًا ما كان يحدث لنا في شبابنا، بما فينا دوناتيلًا.

ـ اسمعي، من فضلكِ...

ـ كنت أدرك قسوة ما أفعله، فلست وحشًا.

ـ اعذريني إذا ارتبتُ في هذا.

ـ على كل حال أفضل من سِفاح محارم يحدث بلا عِلمهما. والشيء الآخر الذي يميز باليوكي هو الجوع.

ـ والآن ينقصه أيضًا الطعام.

ـ لا. لا. لديه من ذلك ويفيض. على الرغم من كونه نحيفًا.

ـ حقًّا، هذا لا يهمني في شيء.

ـ جوعه للنساء. في نهاية الأمر لم يكن هذا خطأه، فقد جُبل على هذا. قطعة من السلاح الفاخر، مصنوع بفن سواء جسديًّا أم نفسيًّا.

ـ ليس إلا مسكينًا في نظري، مهووسًا بملء كل الفراغات، لأنه لا يصل إلى الشبع أبدًا. لا بد أن أتحدث معه عن ذلك يومًا ما.

ـ فلتمكث حيث أنت مع أفكارك العظيمة تلك، يمكن لريناتو أن يحنط السيدات والآنسات على فراشه ببعض الكلمات المعسولة. وهو الشيء الذي حدث للاورا أيضًا. صبية صغيرة مثلها تحولت إلى وجبة لذلك التوربين في عشرين دقيقة. وعندما خرجت لم تعرف حتى اسمها.

ـ الآن سأتقيأ!

ـ أجل... يمكن أن يتسبب أيضًا في هذا. فالوقوع في يد الباليوكي تأثيره أكبر من ركوب أفعوانية الملاهي، متعة بلا مقياس، لكن بمجرد أن تنزل على الأرض لا تقوى على الوقوف. أصبحت لاورا مثلك أمام الكأس، تقسم إنها المرة الأخيرة، وبعدها بدقيقة تعود إلى هناك لتطلب مزيدًا ومزيدًا. كنت أرى ذلك، محاولاتها للابتعاد عن ريناتو أمست شديدة الصعوبة. فأنا أُم وأعرف جيدًا تلك الأشياء.

ـ من الأفضل ألا أقول أي شيء.

ـ خذ وردة مثلها وضعها في يد شخص مثل أماديو، الذي فتح عينيه لتوه على حقائق الحياة، ويجد صعوبة في أن يعثر على قضيبه ليتبول. ثم اعرضها دقيقة واحدة فقط لصفعة يد على الأرداف من بلدوزر مثله، لترى العصيدة

المتبقية من ذلك. من خلال قيادة يد خبيرة، جديرة بهذا اللقب، تصبح الفتاة امرأة في ثلاث جلسات. وهو ما اختبرته لاورا بالفعل، وفجأةً نضج فيها جزء متمرس.

ـ أي أصبحت كالعاهرات!

ـ الآن سأحضر حيث أنت، وأكيل لك الضرب.

ـ اشرحي لي: هل قواعد تلك المباراة تنص على أن أتركِكِ تمزقين ابني أماديو بالإهانات بينما يجب عدم المساس بفراشتكِ الصغيرة؟

ـ فراشتنا!

ـ ما علينا. هيَّا، فلتسرعي للانتهاء من تلك القاذورات.

ـ كان لا بد أن تراها: لم تعد الشخص نفسه قَطُّ. بدأت المكالمات تقل، لحسن حظ أنتيو. ويوم الأحد تذهب لاورا إلى البلدة بالحافلة من دون أن تنتظر أن يقلها بسيارته المتهالكة صديقٌ في عمرها، يجيد فقط التقبيل بهلاوس أن يصبح رجلًا.

ـ مرة أخرى!

ـ ألقت لاورا آنذاك نفسها في أفق آخر، في المساء تعود ببعض الهالات أسفل عينيها. وتبدأ في الاستذكار في

هدوء. الاتفاق مع ريناتو واضح: عليه أن يستمر حتى أتأكد من وقوع الكارثة. لم تكن لديه أي مشكلات، كان دائمًا شخصًا متفهمًا.

ـ إلا أنني سأقتله!

ـ في أحد الأيام، وجدته أمام باب منزلنا.

ـ مَن؟

ـ أماديو. ذهبت لأفتح الباب، ووجدته أمامي بلا سابق إنذار. أوه، كان في حالة سيئة فعلًا. لم أرَ من قبل شخصًا شوَّهَه الألم إلى هذا الحد. أخذ يتمتم بصوت منخفض. أول شيء فكرت فيه: «الآن سيفقد وعيه على عتبة المنزل». يبحث عن لاورا، ويحتاج إلى التحدث معها بأي ثمن، قال: «لحظة واحدة فقط». فتركته هناك.

ـ لم تدخليه إلى المنزل حتى؟

ـ في ذلك المسكن لم ينقصنا مزيد من سلالة بوتاي. ذهبت لأنادي لاورا، عثرت عليها منحنية على صفحات يومياتها السرية: أغلقتها فجأةً، ولا داعي للقول أي المشاهد كانت تدوِّن فيها. عندما قلت لها إن شابًّا يتلعثم في انتظارها على الباب، رفعت عينيها نحو السماء. تنهدت بطريقة جعلتني أغني انتصارًا.

ـ ثم؟

ـ احتاجت إلى بعض الوقت لتبعد عن نفسها ذلك الحيوان الصغير. من الداخل سمعنا تحشرجات التوسلات، مطالبات بالتفسير التي لم تجد إجابة. شعر أنتيو بالشفقة على ذلك الصبي، حيث أخذ يعذب نفسه، فجأةً ينفجر في بكاء ينتهي بسعال. قال زوجي المسكين: «على الأقل لنجلس معه هنا إلى الطاولة، ونتحدث بهدوء». على جثتي، بل إنني أردت أن تفتك به لاورا، حتى يصل إلى منزل بوتاي أخيرًا ألم الهجران القاسي، ذلك الذي يجعلك تجرب الجنون، عندما لا يعود للسماء ولا للأرض معنى، لا تحلم سوى بأمر واحد: أن تتخلص من العالم. العيش بألم من ذلك النوع يؤدي إلى الجنون.

ـ لكنه كان مجرد صبي.

ـ عندما دخلت لاورا أعدت الشاي.

ـ أهنئكِ عليها.

ـ ثم عادت إلى غرفتها، ووداعًا لذلك الدلو. لكنني انتظرت لكي أتحدث في الأمر مع ريناتو. تركت الموضوع أسبوعين كاملين. فالتخلص من بكّاء مثله لم يكن أمرًا سهلًا، في الواقع استمر في ترك الرسائل

القصيرة، وأشياء من هذا القبيل. يتربص بها أحيانًا، وينفجر فيها غضبًا، وهي الأشياء التي كانت تسليني، ففي كل مرة تكرهه لاورا أكثر. وفي أحد الأيام وصلت إلى المنزل باكية، فقد صفعها.

ـ مستحيل، ابني أماديو لا...

ـ لكنه تطاول عليها ومد يده، وكشف أنه ليس مملًّا فقط، بل أحمق أيضًا. وهو الأمر الذي أغضب أنتيو كثيرًا، وكان على استعداد ليوضح الأمر باليد، قائلًا وهو يحرك أثاث الحجرة لينفِّس عن غضبه: «سأكيل للأب ما لا يمكن أن أكيله للابن». ولِأقول الحق، لوهلة أعجبتني الفكرة، كان سيسعدني أن تصل إليك بعض اللكمات، ثمن حساب معلق. في النهاية هدَّأته. لم أرد أن أضيع من أمام نظري الهدف الذي استطعت تحقيقه بكل نجاح: فبهذه الصفعة حفر أماديو قبره بيده.

ـ لعلمكِ، لم يكن أنتيو سيفعل أي شيء، كان شخصًا دمثًا. لا بد أنه فهم أنه مجرد تهور من صبي مجروح.

ـ وقتها كسر درفة الخزانة بركلة. واضطررت إلى أن أعطيه نقاط الدواء المهدئ الذي أتناوله أنا، وإلا دمَّر المنزل، وأنت مَن بعده.

ـ لو رأيت حالة ابني وقتها، لتكلمتِ أقل. أغلق على نفسه في حجرته بين يوم وليلة، لا يأكل، ويبكي فحسب.

ـ يسعدني هذا.

ـ انتاب دوناتيلَّا القلق الشديد. عاشت أمام باب حجرة أماديو، على مقعد. خوفًا من أن يرتكب حماقة ما. لم يعد يذهب إلى المدرسة أو يرى أصدقاءه، كل شيء انتهى بالنسبة إليه.

ـ أعلم عما تتحدث.

ـ في أحد الأيام اتخذتُ قرارًا حاسمًا، لا يمكن أن يستمر الوضع على هذا المنوال. أرسلناه إلى سيَّنا عند أخي. تغيير الهواء سيفيده، ورؤية وجوه جديدة، وما إلى ذلك. أنهى الدراسة المدرسية هناك. وحتى اليوم يعود إلى البلدة متغصبًا.

ـ الانهيار نفسه حدث للاورا، قلت لريناتو لنوقف ذلك العلاج. سأتركك لتتخيل المأساة. ذهبت إلى الدراسة الثانوية بكل درجات الإعدادية السيئة، إلا أنها نجحت في الحصول على الشهادة. وأول شيء قالته: «أريد الرحيل». بعدها ببضعة أيام اصطحبناها للبحث عن منزل في فلورنسا للدراسة الجامعية.

تنهد بوتاي بقوة، ثم تمتم:

ـ مساكين!

ـ لم تكن هناك وسيلة أخرى. أم كنت تُفضل أن يكون لديك حفيد مُشوه الآن؟

ـ لكن كيف يمكنني أن أعرف؟!

ـ في الخطاب طلبت المغفرة أيضًا عن هذا.

ـ كيف؟!

ـ أقول للاورا إن ما حدث في قصة باليوكي كان لإنقاذها من زنا المحارم، وعن أبيها غير الحقيقي، وكل ما حدث.

ـ لكن هل أنتِ غبية؟

ـ من حقها أن تعرف. وربما تُدرك ما فعلته كأُمٍّ حيث لم يكن في استطاعتي تركها تدفع نتائج حماقاتي.

ـ الآن أكثر مما سبق يجب أن تلقي بهذا الخطاب في النار. ستقولين لها عن أب غير حقيقي لا تزالين تبكين موته، وإن الحقيقي حي يُرزق. ستقولين لها إن لها خبرات عاطفية مع لحمها ودمها وإنك استخدمتِ ذلك الباليوكي الأربعيني حتى تتجنبي ما لا يمكن إصلاحه. كل هذا في وصيتكِ الأخيرة، أي بعد حزنها الشديد

على موتكِ بالتأكيد! كل هذا سيقع على رأس شخص بمفرده؟! نيفيس، يمكن للناس أن تُصاب بالجنون من أشياء أقل بكثير. أنا نفسي عندما أضع السماعة لن أعود إلى سابق عهدي.

ـ هل كل شيء يخصني لا بد أن يظل طي الكتمان؟

ـ التعقُّل هو ما يفرضه عليك. لم يتحدث أحد عن انحرافاتنا من قرن مضى، لماذا ترغبين في المخاطرة بتدمير حياة ابنَينا؟ لتثبتي أنكِ صاحبة مغامرات؟ فالأمر لم يعد يتعلق برغبة في الانتقام مني.

ـ حتى روزالتيا خرجت من المشهد بطريقة مسرحية بالفعل. فلا يزال الكل يتحدث عن ذلك!

ـ هل لا تزالين تتحدثين عن تلك الصبية المسكينة؟! هيَّا، لندعها ترقد في سلام.

ـ في كل الأحوال لن يستطيع أحد إقناعي بأن باردو لم يكن وراء هذه المأساة.

ـ نيفيس، ليس بالضرورة أن تخبئ حياة الجميع وجهًا آخر من الحقيقة. جُنت روزا حبًّا في ريناتو، ولم تعد تحتمل التفكير في حياتها من دونه، بل وأن تشهد أيضًا صولاته وجولاته التي لا تنتهي مع الزوجات والأرامل، الأخوات

والحفيدات، في مكانها. في نهاية الأمر ارتكبت حماقة بهذا الصدد.

ـ ماذا؟

ـ بالعودة إلى القصة الشنيعة التي حكيتِها لي، لا بد أن باليوكي يعرف كل شيء عنا.

ـ لا يعرف أي شيء!

ـ تحايلتِ عليه ليغازل لاورا بلا عذر؟ لا أصدق هذا.

ـ كانت تكفيه معرفة أنها فتاة تحامقت في قصة حب تخاطر بسببها أن تفشل في دراستها، وبصفة عامة بقصة ربما انتهت بزواج مبكر. فلا بد من القضاء على قصة الحب المبكرة تلك.

ـ ولم يرمش له جفن؟ لم يبدُ له ذلك جنونًا؟

ـ بدا له دافعًا كافيًا.

ـ أمامه أم تبيع له أثمن ما تملكه ابنتها. عادةً ما تكون هناك طرق كثيرة لإعادة الرشد لابن أو ابنة وقعا في العشق. كنتِ أنتِ تضعين في يديه فتاة لم يمسها أحد.

ـ أنت لا تعرفه.

ـ لقد كبرنا معًا.

ـ أقصد نظرة الذئب التي تظهر في عينيه عندما يشتم رائحة جسد غض. هذه هي نقطة ضعف ريناتو، تحدث معه عن امرأة لم يضع يديه عليها فلن يقوى أحد على إيقافه.

ـ صفة جميلة.

ـ يعيش على هذا الجنون. أنت لك نبيذك، وهو يحب وضع ختمه على البقرات الصغيرات.

ـ فليمت وحيدًا مثل كلب!

ـ هذه هي لعنة روزا التي تخصه.

ـ وماذا عنكِ؟ أنتِ شديدة البراعة في التعرف على لعنات الآخرين. وما هي روزا التي تخصكِ؟

ـ الوحدة.

لمست تلك الإجابة البيطري. في ضوء كل الاعترافات شعر فعلًا بالهجران الذي تتحدث عنه معشوقته القديمة. قال في محاولة لتخفيف الثقل:

ـ لكن هذا قدرنا جميعًا.

ـ واليوم أظهرت نفسها في أبهى صورها: دجاجة.

ـ آه بالفعل، الدجاجة.

شعر لوريانو بالدوار كأنه عاد لتوه من رحلة. من بداية المكالمة عبر شلال من كواليس الماضي، تتنقل من مكايد دوناتيلّا في ملء خصوبتها لتحطم رأس روزالتيا مع صور باليوكي الذي يمثل المسيح بيد فنان مات مقتولًا ليسقط بعدها هناك، عند أحراش القصب لعائلة راوُلِّي، ثم ما حدث في الطريق العام، ومعرفة أن لديه ابنة، وما بعد ذلك. والآن تقلب نيفيس الشريط لتعيد من البداية: الدجاجة المحنطة. كان رجوعًا سريعًا إلى الخلف، إلى حد أن بوتاي شعر بأن دمه يجري داخله إلى الخلف. بدا له ـ على كل حال ـ مناسبة جيدة ليحول مجرى الحديث إلى نبرة مختلفة:

ـ كيف حالها؟

التفتت الأرملة لتنظر، وسقطت السماعة من يدها. على الجانب الآخر من الخط أدرك بوتاي حدوث كارثة ما. وفي النهاية استطاعت نيفيس أن تستعيد السماعة، وقالت:

ـ اسمع هذا... لم تعد موجودة!

ـ لم تعد موجودة؟!

ـ أقصد جاكومينا.

ـ أين هي؟

ـ كيف أعرف؟! كانت هناك محنطة، والآن لم يعد لها وجود.

ـ إذن استيقظت.

ـ يبدو هذا. لكنني لا أراها.

ـ ربما ذهبت لتبحث عن بعض البذور.

ـ يا إلهي، تخيفني.

ـ مَن؟

ـ جاكومينا.

ـ لكن إذا كنتما تنامان معًا.

ـ معرفتي أنها تدور في المنزل مثل الشبح تجعلني أكاد أتبرز على نفسي.

ـ نيفيس، لا تخرِّفي!

ـ تتحدث بثقة، فلديك بوَّاقة في غرفتك تسليك بشخيرها.

ومرة أخرى عاد لوريانو إلى الواقع، فمن كثرة ما تخيل دوناتيلَّا في الحكايات نسي تقريبًا أنها معه في المنزل. همس:

ـ انتظري لحظة.

أنصتَ السمع. وبعد لحظات قال:

ـ لا أسمع شيئًا.

ـ لماذا تتحدث كجاسوس؟

نفخ البيطري:

ـ اخرسي!

ـ ماذا؟

ـ دوناتيلَّا!

ـ ماذا؟

ـ لم تعد تغطُّ.

ـ ربما تقلبت على جانبها. نظرًا إلى أنها كالسفينة فربما غرق الشخير بين ثدييها.

ـ أنتِ لا تعرفينها.

ـ لقد كبرنا معًا.

ـ وأنا أنام معها في الفراش نفسه العمر كله.

ـ يا له من خبر جديد! تخبرني به الآن.

ـ أقول لكِ إنه ليس صمتًا عاديًّا.

ـ الصمت هو صمت.

ـ ربما استيقظت.

ـ لا تتفوَّه بالحماقات، الساعة تقريبًا الثانية صباحًا.

ـ وإذا كانت مستيقظة؟

ـ دعنا نفكر في دجاجتي التي ربما قررت أن تلعب دور الشبح.

ـ الآن سآتي إلى ربوة كوربِلُّو، وأنزع رقبتكِ أنتِ أيضًا.

ـ يا لها من طريقة للشكر!

ـ تقلبين لي حياتي وعليَّ أيضًا أن أشكركِ؟

ـ الآن لماذا تعاملني معاملة سيئة؟

ـ أعاملكِ معاملة سيئة!

ـ في الحقيقة لم تتوقف قَطُّ عن هذا.

ـ نيفيس، في الغرفة لدينا هاتف آخر.

ـ وهل هذا يهمني في شيء؟

ـ أليس ممكنًا أن تكون دوناتيلَّا ـ نظرًا إلى أنها لم تشعر بي في الفراش ـ استيقظت؟ وأليس ممكنًا أنها نظرت لأنها أدركت أنني لا أزال في الردهة، رفعت السماعة الأخرى...

ـ دوناتيلَّا، هل أنتِ هناك؟

ـ ماذا؟

ـ دوناتيلَّا، هل تسمعيننا؟

ـ توقَّفي يا غبية!

ـ أنا هنا.

ـ ...

ـ ...

ـ أكملا. جميل ذلك العرض الليلي.

ـ ...

ـ حـ... حبيبتي، لا...

ـ أهلًا يا دوناتيلَّا.

ـ أهلًا يا نيفيس. ما أخبار الدجاجة؟

ـ كيف أعرف، تتسبب في قشعريرتي. إنه لشيء مرعب التفكير في شخص يسير في المنزل بغير معرفتكِ.

ـ فعلًا...

ـ عزيزتي، الآن سأضع السماعة و...

ـ عزيزي، ستطلعني عليه، أليس كذلك؟

ـ ماذا؟

ـ كم أنت ماهر في الاختفاء من المنزل في تسع دقائق!

ـ لا، أنتِ لم تفهمي... كانت مزحة. اسمعي: لقد وقعتِ في الفخ!

ـ بكل قوتي.

ـ أنتِ لا تفكرين فعلًا أن...

ـ نيفيس، يؤسفني ما حدث كثيرًا.

ـ صديقتي، لا تقلقي. الآن حدث ما حدث.

ـ أشكركِ أيضًا من أجل أماديو.

ـ هذا واجبي كأُم.

ـ وفيما يخص روزا، أتفق معكِ تمامًا. سيحمل باردو معه أعماله الرديئة إلى الجحيم، أما حاليًّا فهو يعاني الخرف الشيخوخي في دار المسنين من دون أن يتعرف على أي شيء ولا أي شخص. وبالعودة إلى موضوع الانتقام، أحيانًا يحدثني ريناتو عن هذا. ويقول إنه لم يؤمن من قبل بالصلاة، لكنه منذ عشرة أعوام يوقد شمعة للعذراء أسبوعيًّا، ويطلب أن يعيش أبوه أطول وقت ممكن. ثم يذهب إلى دار المسنين ويهنئ الممرضين على أنهم

يحافظون على جسم باردو سليمًا معافى. أما بالنسبة إلى ذهنه فهو موضوع آخر: لديه بعض لحظات الاستنارة، التي تجعله يتألم أكثر. ثم ينسى كل شيء مرة أخرى، ومعظم الوقت لا يعرف حتى اسمه. ييأس ويبكي. ها هو يدفع ثمن ضربه ابنه في صباه. ويدفع ثمن أيضًا استغلاله صبيةً كان لديها ما يكفي من مشكلات.

ـ يستحق ذلك.

ـ هل يمكنني أن أقول شيئًا أنا أيضًا؟

ـ زوجي العزيز، ألم تنفِّس عن نفسك بما يكفي؟

ـ حبيبتي، الآن سأضع السماعة، ولنتحدث في هذا بهدوء.

ـ توقف عن مناداتي بحبيبتي.

ـ دوناتيلَّا، بحق السماء!

ـ أوه! الآن تغضب أيضًا. تكاد تبدو رجلًا.

ـ لم يكن أي من هذا حقيقيًّا.

ـ ماذا؟

ـ ذلك... أنتِ تفهمين.

ـ لا أفهم شيئًا.

ـ لنغلق الخط، ولنتناقش وجهًا لوجه.

ـ حسنٌ أيضًا أن تسمع صديقتنا نيفيس ما ترغب في قوله.

ـ لكن هل جننتما كلتاكما هذا المساء؟

ـ نيفيس، هل جننتِ؟

ـ لم أكن قَطُّ بهذا التعقُّل.

ـ أرأيت؟ هيَّا يا عزيزي، ماذا لديك لتقوله؟

ـ موضوع الحقيبة، في أكتوبر ذلك الملعون.

ـ أجل.

ـ لم أتدرب قَطُّ على إعداد الحقيبة لكي أهرب مع تلك المجنونة.

ـ لكنني أتذكر الليلة التي لم أنم فيها جيدًا. من وقتها لم ألمس اللازانيا قَطُّ.

ـ لقد قرأتُ اضطراب المعدة ذلك كتحذير بالنسبة إليَّ.

ـ إذن كنت تفكر حقًّا في الرحيل؟!

ـ كيف لي أن أعرف، فقد أقسم كلٌّ منا للآخر. بل كانت هي مَن يصر على ذلك. قلت لها أجل لأنني رغبت في أن أنهي معها تلك العلاقة في تلك الأحراش المتعفنة.

ـ مخادع!

ـ نيفيس، لا تبدئي أنتِ أيضًا، كنا مجرد صبية. في كل الأحوال الدليل على ذلك عدم وجود أي حقائب في آخر الردهة. دوناتيلَّا قولي إذا لم تكن تلك هي الحقيقة.

ـ كانت رؤيتي مشوشة للغاية، حتى لو وُجد كلب درواس ضخم لما انتبهت له. على كل حال ماذا كنت تفعل في منتصف الليل مستيقظًا؟ مؤكدٌ كنتَ تستعد للخروج، وما إلى ذلك.

ـ ما تقولينه الآن مجرد كلام في الهواء.

ـ بالتأكيد!

ـ إذن قولي ماذا حدث في اليوم التالي؟

ـ ماذا أقول؟

ـ الحقيبة. لو كانت موجودةً، لتعرقلتِ فيها عمليًّا.

ـ أكاد أراك الآن وأنت تعيد وضع كل شيء في الأدراج فجرًا وذيلك بين ساقيك. أكرر لكِ يا نيفيس، يؤسفني هذا كثيرًا.

ـ وأنا يؤسفني هذا من أجلكِ. أنتِ مَن عشتِ مع كلب

جبان. فلننظر الآن كيف صارت الأمور: في النهاية يجب عليَّ أن أشكركِ على اضطراب المعدة.

ـ لا شكرَ على واجب.

ـ هذا كابوس!

ـ عزيزي، خذ كلمات زوجتك واطبعها على جبهتك، إنها مجرد البداية.

ـ دعيني أفهم، هل تستمعين إلى تلك المجنونة؟ فلندع جانبًا مس الجنون الذي أصابني منذ مائة عام... لكن فيما عدا ذلك الأمر في غاية الوضوح: تركتها تثرثر، هذا ما ينصح به الأطباء النفسانيون للمرضى النفسيين.

ـ لوريانو، يا لك من شرير!

ـ صديقتي العزيزة، دعيه يتحدث. يضرب بجناحيه مثل الديك البري الذي أراد أن يجمع بين الغداء والعشاء، وها قد سقط في الفخ الذي بناه بيديه. الآن مستعد لأن يقسم إنها تُمطر من أسفل إلى أعلى.

ـ يجب أن أكون صادقة، الآن أشعر بالدوار.

ـ هل تشعرين بأي إعياء، عزيزتي؟ اندفاعات أكثر مما ينبغي للقلب في سننا ليست شيئًا هينًا.

ـ بالنسبة إليها! وماذا عني؟

ـ الغيلان مثلك دمها قوي. ويشهد على ذلك رد فعلك أمام نقاط الدواء، التي تتجرعها مع نهاية كل زجاجة نبيذ ضخمة.

ـ نقاط؟ أي نقاط؟

ـ ليس من الجيد رؤية زوج ينتحر بتناول الشراب. ونظرًا إلى أنني زوجة عاقلة، أخفف الحمل.

ـ أي؟

ـ أضع لك نقطتَي مهدئ.

ـ من ماذا؟

ـ من ذلك الذي يكتبه لي الطبيب منذ الأزل لضربات القلب. أملأ لك ملعقتين مليئتين داخل الدورق الذي نضعه على المائدة.

ـ هل جننتِ؟ يمكن ألا أستيقظ أبدًا بسببها.

ـ إن شاء الله!

ـ دوناتيلَّا؟ هل تخدرينني كل مساء بمنوم في النبيذ؟

ـ على الأقل تتجنب بذلك الانتهاء من لتر ونصف اللتر من النبيذ، الذي من ناحية أخرى باهظ الثمن. فأنت تصل

بصعوبة إلى الكأس الثانية. تبدأ إشارة نشرة الأخبار، وتكون جاهزًا لتوضع في صندوق. أنجح بصعوبة في سحبك إلى الغرفة.

ـ ومنذ متى بدأ هذا؟

ـ كيف لي أن أعرف؟! منذ الأزل!

ـ منذ الأزل؟!

ـ منذ أن قررت ألا أدعك تتلف كبدك مثل الأحمق.

ـ لكنها أشياء يمكن إدمانها.

ـ في الوقت نفسه تجنبت السقوط إلى ما لا نهاية.

ـ هذا إذن سبب كل ذلك الجنون.

ـ أي جنون يا حبيبي؟

ـ أنتِ تعرفين: في الصباح أستيقظ كأن طرقات في رأسي، ويزداد الأمر سوءًا. ألقي نفسي في السيارة كأنني أحمل كيس أسمنت على كل قدم. أحيانًا أحرك عينَي وتصل الأشياء بعدها بلحظة مسببة في دوار البحر. ولا أشعر بأي تحسن إلا بعد فنجانين من القهوة وأول كأس «جرابًّا» لدى مومو.

ـ وهكذا يبدأ اليوم؟!

ـ لم تفهمي.

ـ بل فهمت: فأنت سكير. لكنه أمر معروف.

ـ ربما جُن جنوني إذا توقفت.

ـ عاد سيلَّاري إلى الحياة عندما توقف.

ـ أتحدث عن نقاط الدواء. إذا أوقفتها فجأةً بعد كل تلك الأعوام سينقلب عالمي.

ـ تقريبًا مثلما حدث لي هذه الليلة.

ـ يا إلهي، أشعر بأنني في حالة سيئة بالفعل.

ـ اسمع كلام زوجتك: هذه مجرد البداية.

ـ إنني لا أستطيع التنفس.

ـ إلا أنه منذ عشر دقائق بدا لوريانو العزيز كالثور.

ـ نيفيس، اذهبي إلى الجحيم!

ـ عزيزتي، لا تستمعي إليه.

ـ هل رأيتِ أي نوع من الرجال هو؟ بمجرد أن قلتِ إنني أشعر بالدوار صعد إلى خشبة المسرح. مصاب بجنون العظمة.

ـ وماذا عنكِ؟ هل تشعرين بأنكِ بخير؟

ـ يبدو لي أنني أحلم!

ـ ومَن سمعك؟!

ـ بمعنى أن شيئًا ما على وشك أن يحدث لي. إذا حكيته لن تصدقيني.

ـ كُلي آذان مُصغية.

ـ كيف أعرف؟! ربما جُننت فعلًا! أشعر بأنني بخير.

ـ إنكِ بخير!

ـ بطريقة لم أجربها من قبل. يبدو لي أنني عدت صافية مثل صبية صغيرة، بلا متاعب ولا هموم.

ـ محظوظة!

ـ ذاب كل شيء كالسحر. هل يجب أن أقلق؟

ـ صديقتي، أنا أعرف ما حدث.

ـ حقًّا؟

ـ لقد رأيت طينة لوريانو الحقيقية وشعرت بالاشمئزاز. قضيت حياتكِ كلها معلقة في فكرة ذلك الحب الرائع، حتى اكتشفت الحقيقة في محادثة ليلية، وهي أنكِ لم تخسري أي شيء.

ـ أشعر بأنني على وشك البكاء، أهكذا يصبح المرء طبيعيًّا؟!

ـ لقد تخلصتِ من حمل ثقيل. وهو الشيء الذي سأفعله أنا أيضًا بسرعة البرق.

ـ بالتأكيد لن أقول للاورا عن ذلك الخطاب! لن أسمح أبدًا أن تفكر ابنتي أن لها أي علاقة بعائلة بوتاي.

ـ أحسنتِ.

ـ انظري إليَّ يا دوناتيلَّا، فأنا أبكي وأضحك في الوقت نفسه! ومَن كان يتوقع هذا؟! فجأةً أفكر أنني لم أخطئ في أي شيء. إذا لم تكن ركبتاي مُدمرتين لبدأت في الرقص. واسمعي هذا: فكرة أن أنتيو ـ زوجي هذا المسكين لم يدعني قَطُّ أحتاج إلى أي شيء ـ فجأةً أصبح قديسًا. كم أفتقده! بل وحفيداي الشقراوان اللذان لا أعرف نطق اسميهما يبدوان لي عطية لا مثيل لها.

ـ لأنهما هكذا بالفعل.

ـ وهذه المزرعة، المليئة بالذكريات! دوناتيلَّا، كل شيء جميل! أتعرفين ماذا أتمنى وسط كل هذه السعادة؟ أن ينظر إليَّ الرب ويناديني عنده الآن، فأنا مستعدة تمامًا! هل يبدو لكِ من التعقُّل طلب الموت؟

ـ لا أحد يمنعكِ!

ـ وأنت يا لوريانو! أيها الطفل البائس المستهتر، والجبان. فجأةً أشعر نحوك بالشفقة الشديدة. لم أكن سوى تسلية لك بين الأحراش. ومَن يستطيع أن يقاوم فتاة عاشقة حتى الثمالة، إلى حد أنها تقدم نفسها بالكامل، ومستعدة لتحطم زواجها؟! أنت لم تخترني ولو للحظة واحدة، إلا أنك واصلتَ الحضور في المواعيد. مثل أي رجل خسيس تحب أن تعود إلى المنزل بتلك النتيجة. ولكي تتمكن من أن تضع يديك عليَّ، كنت مستعدًّا لأن تقدم وعودًا لا حدود لها من دون أن تعبأ بثقل كلماتك. أوه، لو لديك أدنى فكرة عن كم الحب الذي كنتُ على استعداد أن أمنحك إياه! بل وكم بدت تافهة تلك اللقاءات، حيث أردتك كلك، كنت على استعداد أن أقطع شراييني في سبيل أن أجدك في الفراش في اليوم التالي، وأن أقول لك: «صباح الخير يا حبيبي». إلا أنني بالنسبة إليك لم أكن إلا وسيلة لتمضية الوقت. لعبة تحكي عنها بعض الشيء مع رفاق الشرب، واصفًا إياي بالحمقاء وأنتيو المسكين ديوث برخصة. وربما تشد على يده بعدها بدقيقة. مقزز ومخادع حتى اللحظة الأخيرة. يا لك من مسكين

يا لوريانو العزيز! ويا لي من حمقاء! أنا الغبية التي كرست تقريبًا نصف قرن في ذكراك. الآن تقف هناك، في الردهة مُسمرًا أمام الهاتف، من جهة المرأة التي خدعتها، ومن جهة أخرى تلك التي خنتها. أكاد أراك الآن: منكوش الشَّعر ومنتفخًا من النبيذ، في سروالك الداخلي، مفزوعًا من الصورة التي تنظر إليك. مثل مرآة تعكس الأشياء تمامًا كما هي، لكن من ناحية أخرى: فأنت مَن ضاع، وأنا مَن نجوت. قل لي إذا لم يكن هذا الخبر هو نعمة عظيمة. بالتأكيد لم أكن بطلة سواء كزوجة وبعد ذلك كأم، لكنني فجأة الآن يمكنني الصياح، وفي يدي القِدر التي أدق عليها في الفجر، بأنني لم أخدع نفسي قَطُّ. يومًا بعد يوم أعيد تحريك عدة أحلام مجهضة بعينين ناعستين معي لاورا وأنتيو في المزرعة. نعيش الحياة المتواضعة لأناس صالحين، يتقدمون إلى الأمام وهم يقدرون الأشياء الصغيرة: احتفالات عيد الميلاد وعيد القيامة، أعياد ميلادنا وليالي الصيف. وأنا أعيش في وسط كل هذه الأشياء، وأكثر من ذلك أعيش مثل الملكة، لكنني لم أدرك ذلك لأنني انشغلت بمعركة أخرى. الآن وقد أدركت أنني منحتُهما فقط جزءًا من نفسي أشعر بالندم، إلا أنه يوجد دليل يدفئني من رأسي إلى قدمَي، لقد حصلت على

الكثير هنا، الكثير حولي من الذكريات. ولن تكفيني ست حيوات لأتصفح ذلك الكتاب الذهبي الذي تفتح الآن بداخلي، ناعتًا إياي بالغبية عندما أعود وأرى نفسي في الآلام التي كنت أحب تغذيتها كشابة ثم كامرأة هُجرت. إلا أنني في الوقت نفسه تمتعت بالعناية في أجمل مكان في العالم ولم أدرك هذا. وهكذا يا عزيزي لوريانو، أشكرك، لأنني إذا لم أذرف الدماء من أجلك الآن لما جمعت الثمار التي جعلتني أرى ربوة كوربِلُّو مثل الكاتدرائية. وأشكر أيضًا روزا أو أيًّا مَن قرر هذا المساء ـ من أجلها ـ أن يستحوذ على دجاجة ليدفعني إلى الاتصال بسبب حالة الطوارئ برقم معين. في الصباح سأذهب لأسحب نصف معاشي وأرسل إلى حفيدَي ـ الساكنين فيما وراء الألب ـ هدية ستلمع أعينهما عند رؤيتها، لأنه في النهاية حدث هذا بالفعل: لقد مسني الجنون، لكن جنون السعادة.

ـ ...

ـ يا لها من كلمات جميلة يا نيفيس!

ـ عزيزتي دوناتيلَّا، أشعر بالأسف فعلًا من أجلكِ. ربما سرقتُ منكِ كل شيء. اعلمي فقط أن هذا لم يكن في نيتي.

ـ ماذا تريدين أن أقول لكِ؟! كنتُ أعيش في طمأنينة ليست لي، والصواب الآن أن تعود إلى أصحابها.

ـ حسنًا، الآن تأخر الوقت. سلام.

عندما قالت هذا، وضعت الأرملة سماعة الهاتف بكل بساطة، من دون انتظار أي رد.

مكثت نيفيس أمام الهاتف دقيقة أخرى، ذراعاها تؤلمانها بسبب تمرير السماعة من يد إلى أخرى. تشعر بأن أذنيها مشتعلتان، وبهما نوع من الأزيز، الذي ذكرها بالضرب الذي تلقته في صغرها بعد أي تعفرُتٍ. لكن الأهم أنها حاولت التعامل مع شعور غريب، قلبها يدق بطريقة عجيبة، يضخ شيئًا كالنشوة التي يشعر بها المجرمون المهرة عندما يهربون من المصارف وهم يضمون إلى صدورهم سرقة القرن. ثم تحركت، وحتى ذلك بدا عجيبًا، حيث بدا لها أنها تسير بخطوات دقيقة، واثقة بنفسها. وأدركت أنها تشعر بالجوع.

مرت جاكومينا بجوار طرف قميصها كأنها في طريقها للتسوق. أمر غاية في الندرة رؤية دجاجة مستيقظة في تلك الساعة من الليل. نظرت إليها نيفيس وهي تترنح على رجلها المعضوضة، ورأت فيها تناغمًا جعلها تبتسم.

لا يزال نور الصالة مُضاءً. شعرت نيفيس بالرغبة في أن تذهب إلى هناك وتكرر تصرُّف أنتيو المسكين، عندما تخطر بباله، مرة في السنة، تلك الفكرة المجنونة ويفتح العلبة ويدخن سيجارًا. تصرُّف يقوم به بلا سبب معين، وبلا مناسبة يحتفي بها. بالاقتراب من الأريكة رأت الحفرة من أثر جلوس الدجاجة مُنومة على الوسادة لمدة طويلة. في تلك اللحظة قفزت، وقالت بصوت مرتفع:

ـ آه! لقد باضت.

وأول فكرة خطرت ببالها هي أن تُعد لنفسها البيض المقلي.

المؤلف

ولِد ساشا ناسبيني في جروسيتو في وسط إيطاليا عام ١٩٧٦، وهو محرر ومدير فني وكاتب سيناريو معروف. نُشرت له كثير من القصص القصيرة والروايات، وتُرجمت أعماله إلى لغات مختلفة، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية، و«محادثة ليلية» هي أول رواية تُترجم له إلى العربية.

حصل ساشا ناسبيني على جوائز عدة، أهمها: جائزة مدينة لونيانو، وجائزة مدينة كافه، ووصلت بعض رواياته إلى نهائيات عدة جوائز أخرى.

المترجمة

أماني فوزي حبشي من مواليد القاهرة، ١٩٦٨. حصلت على ماجستير في الترجمة، ودكتوراه في الأدب الإيطالي، من كلية الألسن جامعة عين شمس.

حصلت على الجائزة الوطنية الإيطالية للترجمة عام ٢٠٠٣، وعلى وسام نجمة إيطاليا برتبة فارس عام ٢٠٠٤ لإسهاماتها في نشر الثقافة الإيطالية. وشاركت بعدد من المقالات والأبحاث الخاصة بالثقافة الإيطالية والترجمة، التي نُشرت في مختلف الصحف والمجلات المصرية. وأسهمت في تأسيس صفحة «المقهى الثقافي الإيطالي» عام ٢٠١٧، وهي صفحة تعمل كببليوجرافيا للأعمال المُترجمة من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية.

ترجمت لدار الكرمة «أصوات المساء» لنتاليا جينزبورج، و«أربطة» لدومينيكو ستارنونه، و«لن نقدم القهوة لسبينوزا»

لآليتشه كابالي و«سأبقى هنا» لماركو بالزانو. ومن أهم ترجماتها الأخرى: «بندول فوكو» لأومبرتو إيكو، و«ثلاثية أسلافنا: الفسكونت المشطور، البارون ساكن الأشجار، فارس بلا وجود» لإيتالو كالفينو، و«بلا دماء»، و«مستر غوين»، و«ثلاث مرات في الفجر» لأليساندرو باريكو، و«الجبال الثمانية»، و«فتى الجبل» لباولو كونيتِّي و«اذهب حيث يقودك قلبك» و«صوت منفرد» لسوزانا تامارو.

«مفاجِئة حقًّا» — كومبليت ريفيو «مبهجة ومؤثرة» — إن بي أر

«رواية مثل سكين نحيفة ومدببة وحادة» — مراجعات كيركوس

«قوية» — كريتيكا ليتراريا «ساحرة» — لا ستامبا

ذات مساء تتعرض الدجاجة المفضلة للسيدة نيفيس لوعكة صحية غريبة، فتتصل بالطبيب البيطري للبلدة. تتخذ محادثتهما الهاتفية منعطفات كثيرة وغير متوقعة، يُزاح فيها الستار عن علاقات قديمة متشعبة تحمل في طياتها كثيرًا من الخبايا والأسرار، وتُفتح من جديد دفاتر قديمة وحسابات لم تُغلق آنذاك. فنجد أنفسنا أمام حوادث غامضة، وقصص حب ضائعة، وفرص مهدرة، وجروح لم تلتئم قَطُّ.

بسرد دقيق وحاد، وصدق مذهل، يغوص ساشا ناسبيني في عمق إنسانية تجمعنا، ويطرح سؤالًا مهمًّا: ممَّ تتكون حياتنا حقًّا، من فرص ضاعت منا أم من أخرى منحتها لنا الحياة؟

رواية ممتعة وعميقة، بقلم أحد أهم الأصوات الجديدة في الأدب الإيطالي، استطاعت جذب الأنظار، وتُرجمت إلى لغات عدة، نقدمها بترجمة أمينة ورائقة لأماني فوزي حبشي.




ISBN 978-977-86783-5-2